سجينة رقم ٢

الكتاب: سجينة رقم 2
المؤلف: نرمين عبد الله
فوتوغرافيا: محمد عبد القادر
تصميم الغلاف: بيري محمد
تدقيق لغوي- إخراج فني:
سُكون www.sekoon.com
رقم الإيداع: 4453/ 2018
ردمك: 978-977-6549-63-0
الطبعة الأولى: يناير 2018
المدير العام: هالة البشبيشي
المدير التنفيذي: شريف الليثي

تويا
دار تويا للنَشر والتَـوزيع

(+2) 01066444204
(+2) 01000706014
dartoya2015@gmail.com
دار تويا للنشر والتوزيع dar.toya
@Dar Toya
@Dar_Toya
٣٥ شـارع النـصر..
المعادي الجديدة نوفمبر ٢٠١٧

نرمين عبد الله

سجينة رقم ٢

رواية

تويا
دار تويا للنَشر والتَـوزيع

إهداء

إلى كل هؤلاء الذين سببوا شرخًا في جدار الروح.. ربما هذا الشرخ هو المكان الوحيد الذي أدخل النور إلى قلبي لأقوى ..

إلى هؤلاء جميعًا الذين منحوني الألم، فلربما زرعتم داخلي إصرارًا على الحياة.. لولاكم ما كنت وما بقيت..

«**نرمين عبد الله**»

شكر خاص

كل الشكر لمُلهمتي الأولى وصاحبة القصة الحقيقة على ثقتها بي واختصاصي أنا تحديدًا لكتابتها.

أشكر صديقي المصحح النحوي سعد الدين محمود الذي ساعدني رغم ضيق وقته، وأيضًا أشكر الكاتب والمحرر إيهاب مصطفي الذي تحمل أخطائي بصدر رحب وصححها

أشكر صديقي المصور المحترف «محمد عبد القادر» على صورة الغلاف وعلى تحمله لترددي الدائم، وأيضًا أشكر الغالي رفيق المشوار الفنان معتز مدحت بطل الغلاف وعلى مساندتي منذ بداية كتابة العمل.

أشكر أيضًا الصديق المثقف أحمد صفر على وقته وتعاونه معي في اختيار اسم للرواية.

أشكر أخي القبطان احمد، وأختي الدكتورة شيرين.. السند والأمان والعمود الفقري..

أشكر أصدقاء العمر، الرصيد الحقيقي وكل ما أملك وهدايا الله لي.. أصدقاء الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعة، الباقين الثابتون الداعمون لي والمؤمنون بأحلامي.. دمتم الحياة..

أشكر أخي الصغير وشريك النجاح بل صاحب الفضل الأول بعد الله «محمد صلاح» ليس هناك كلمة شكر تفي حقه.

أشكر أبي وأمي علي وجودهم في حياتي ومساندتهم لي وإيمانهم بموهبتي أخيرًا.

كلما أخبرت روحي أنني انتهيت منك، أجد أن هناك شيئًا يحاول أن يعبث بروحي منتهية الصلاحية، في كل مرة أخبرتك بأننا انتهينا، كنت حينها أكذب على قلبي المسكين، أضخ بأنسجته مخدِّر النسيان كي يتجاوزك ويهدأ؛ حتى إشارات القدر التي تخبرني بين الحين والآخر أنك لا تستحق، لم تكفني، أجد كل إشارات المرور تُضيء لي اللون الأحمر كي أقف، لكنني تماديت في سيري، وضعفي، وغبائي.

كنت حبلًا من خيوط عتيقة، يلتف حول عنقي يومًا بعد يوم، منذ عرفتك وقلبي وعقلي يتورطان بك أكثر، رغم كل ما سببته لي من ضرر، إلا أنني لا ألومك على شيء، لا أحمِّلك أي مسئولية.. كنت تؤمن بمقولة «القانون لا يحمي المغفلين»، وكنت أنا المغفلة يا «مُراد».

دائمًا كنت أنفرد بروحي وأتخيل معها، ماذا لو لم نلتقِ أبدًا! ماذا لو كنت قد تأخرت في نومي ساعة أو حتى نصف الساعة، وانتهى ميعاد لقائنا لأول مرة.. أتخيل، ماذا لو تعثرت أنت في زحام القاهرة وإشارات المرور، أي شيء كان ليمنعك من الوصول أثناء وجودي بمقر عملك.. لا لا كل هذه التخيلات لم تعجب عقلي أبدًا، حتى إنني شردت بأفكاري لبعيد، وقلت إنه كان من الأفضل أن يكون لي موهبة أخرى غير الكتابة، وأن أعمل بمهنة أخرى غير الصحافة، حتى لا ألتقي به نهائيًّا.

كم أكره وجودك بحياتي يا «مراد»، ألعن كل شيء كان سببًا في معرفتي بك، ألعن قلبي الذي احتفظ بك بهذا الشكل المميت..

أتعلم يا مراد؟ من الصعب على أنثى أحبَّت بهذه الطريقة الجنونية أن تنبذ حبيبها بهذا الشكل! صدقني سئمت منك، من حروف اسمك، رائحتك، أنفاسك، صوتك، من كل شيء، لكني كنت في كل مرة أضعف عن الابتعاد عنك، وأنجو من تكبُّرك وجبروتك.

اليوم أكتب في الذكرى الثانية على معرفتي بك، مر عامان وأنا معك.. عامان لم أرَ فيهما النهار، كأنني كنت معك في قبرٍ، ليس به حتى ولو بصيص من نور. أتذكر كل شيء، كل لحظة، كل يوم.. كأسطوانة فيلم أجده يمر أمام عيني كامل التفاصيل، يُمكنني أن أقصّ عليك هذين العامين بطريقة مملة، أن أحكي لك أدق التفاصيل، ستتعجب من قوة ذاكرتي، لكن صدقني يا مراد، أنا لا أحتفظ بمثل هذه الذكريات لأنها تسعدني يومًا، بلى، فأنا لا أستطيع التخلص منها، كأنها شبح لعين يطاردني أينما كنت، أجدها كل ليلة بأحلامي لتنغص عليّ نومي، أجدها تلاحقني في كل الطرق والأماكن، لم تكن قصتنا يا مراد قصة مثيرة للتذكر.

لا شك أن الفضفضة على الورق أصعب من الحكي.. منذ اللحظة الأولى التي تقرر أن تمسك قلمك وتكتب، ستجد روحك تنهار، مثل نهرٍ محبوسٍ خلف جدران من فولاذ، يندفع بلا هوادة بمجرد أن يتحطم هذا الجدار.

حياة هو اسمي، اسمٌ فقط وليس صفة، فلم أكن أطمح في أن أحيا في مثل هذه الحياة.. هي التي أجبرتني أن أعيشها كما هي، دون أي حقٍّ لي بالاختيار.

وُلـدت مـن صلـب «جـلال العـدوى» الرجـل القـوي، الجـاد، العاشـق المخلـص لعملـه، صاحـب المبـدأ الواحـد «المهـم فالأهـم»، ودائـمًا كان أهـم شيء لديـه هـو أعمالـه ومـن بعدهـا يـأتي أي شيءٍ آخـر.

عملـه بالاسـتيراد والتصديـر منـذ شـبابه، جعلـه رجـلًا لا يفكـر إلا بعقلـه فقـط، القلـب لا يتدخـل نهائيًّـا في أي قـرارٍ بحياتـه.. أبي الـذي أخـذت منـه أسـوأ صفـات: العنـاد، الإصرار، عـدم الاسـتماع لنصائـح الغـير.. ورفضـت أن أرث منـه تفكـيره العقـلاني وأن ألغـي قلبـي مثلـه تمامًـا.

تعـرَّف بأمـي «عاليـة « لبنانيـة الأصـل، خـلال تواجـده في إيطاليـا في رحلـة خاصـة بأعمالـه، شـاء القـدر أن يجمعهـما وشـاء أن يتزوجـا، وشـاء أن ينجبـاني.. نشـأت قصـة حـب سريعـة بينهـما وقـررا الارتبـاط الرسـمي في أقـل مـن خمسـة أشـهر عـلى تعارفهـما، لكـن أبي كعادتـه دائـمًا يسـتخدم عقلـه فقـط، وجدهـا تناسـبه ماديًّـا وفكريًّـا وعـلى درجـة كبـيرة مـن الجـمال وتحمـل الجنسـيتين اللبنانيـة والإيطاليـة.. لكـن أمـي أحبتـه جـدًّا، ووجـدت بـه الرجـل المـصري الوسـيم ذا الطابـع الشرقـي، رجـل شـهم، كريـم، قـوي، عطـوف.. كان نظرهـا غـير حـاد كـي تـرى عيوبـه الواضحـة، لكنـه الحـب!

عاشـا معًـا حيـاة هادئـة في أول أشـهر الـزواج، وزادت سـعادتهما عندمـا حملـت أمـي.. أخبرتنـي أمـي أن أبي وقتهـا كان بمثابـة الطائـر الـذي يحلِّـق بالسـماء، بـل وتمنـى أيضًـا أن ينجـب أنثـى، الله لم يـردّ لـه أمنيتـه، فأعطـاه مـا تمنـى، قـرر أن يختـار اسـم «حيـاة «، كـي يُكتـب في كل مـكان «حيـاة جـلال العـدوي».. وكأننـي كل حيـاة هـذا الرجـل.

لا أعـرف كيـف ينتهـي حـب جمـع بـين قلبـين بهـذه البسـاطة؟ كيـف تتمكـن ظـروف أن تفـرّق بـين روحـين أراد الله لهـما أن يلتقيـا، ويصبحـا روحًـا واحـدةً! كيـف يقـدر اثنـان كانـا يقتسـمان كل شيء، -اثنـان تجـردا أمـام بعضهـما مـن كل شيء- أن يصبحـا أعـداء! كيـف ومتـى اختفـى كل هـذا الحـب الـذي ألـف بـين قلبيهـما!!.. لا أعـرف مـا الـذي حـدثَ بـين أبي وأمـي كـي ينفصـلا، وتشـتعل الحـرب بينهـما عندمـا كنـت في التاسـعة مـن عمـري، لا أعـرف مَـن الجـاني ومَـن الضحيـة، فـكل منهـما يخـبرني أن الآخـر سيء، لكـن لم يهمنـي في يـوم أن أعـرف مَـن السـبب، فأنـا وحـدي مـن أتـذوق مـرارة الطـلاق.

أخـذني أبي مـن أمـي طِبقًـا للقوانـين اللبنانيـة، التـي تنـص عـلى أنـه في حالـة الطـلاق يتـولى الأب حضانـة الأبنـاء حتـى وإن كانـوا رُضـع، تذمـرت جـدًّا عندمـا ابتعـدت عـن أمـي، شـعرت بأننـي أكـره أبي، شـعرت بوحـدة قاسـية، حتـى هـذه اللحظـات لم أتمكـن يومًـا أن أنسـى دمعـات أمـي لحظـة فراقـي، لكـن بالطبـع الحيـاة تسـتمر، شـئت أم أبَيـتُ ستسـتمر، ولأنـه شـخص لا يعـرف للمشـاعر عنوانًـا، تـزوج أبي بعـد ثمانيـة أشـهر فقـط مـن طلاقـه مـن أمـي.. عشـت مـع جـدتي أول عـام مـن زواجـه، ثـم عـدت لـه، لا أنكـر أن زوجتـه كانـت تعاملنـي بـكل ود، لكنـي أيضًـا لم أكـن الطفلـة السـيئة.. رحيـل أمـي عنـي جعلنـي أشـعر بكـسرة كبـيرة.

أنجـب أبي مـن زوجتـه، أخـت وأخ، «سـمر» أولًا ثـم «بـلال» واكتفـى بنـا.. ربطـت عـلى قلبـي ربـاط الوحـدة منـذ الصغـر،

اهتممت بدراستي جدًّا، كي أهرب من كل شيء يخترق عقلي ويؤلمه.. يومًا بعد يوم تعودت على غياب أمي، هي أيضًا تعودت، فبعدما كانت تحضر عطلة سنوية لتقضي معي عدة أيام، صارت تأتي كل ثلاث سنوات أو أكثر، لم تنجب غيري رغم أنها تزوجت مرتين بعد أبي، انشغلت بالسفر الدائم وجدول أعمالها.

الحياة بدون أم أمرٌ مؤلم بكل الأشكال، حتى إن كنت تعودت، فبلا شك كنت في كل لحظاتي أحتاج لها.

تخرجت في كلية إعلام قسم صحافة بتقدير عام جيد جدًّا، تلك الكلية التي دومًا تمنيتُها، فبعد «الكورسات» والوِرَش التدريبية، عملت بإحدى الصحف الشهيرة بالقاهرة وتخصصت بعد عامين في قسم الحوادث.

الحياة دائمًا لا تعطي لمن يقف على أبواب رحمتها ويمد يده.. ولأن الحياة لم تمنحني الحب، ولأنني فشلت أكثر من مرة في علاقاتي العاطفية، قررت أن أعيش وحدي، أبتعد عن أي ارتباط، وأن أكتفي بحب نفسي فقط.. قررت أن أخلق لنفسي عالمًا خاصًا، بأبواب من حديد وأسوار عالية لا يسكنه سوى قلبي وروحي وأحلامي التي أسعى كل ليلة لتحقيقها.

أصبحت أضع كل تركيزي في أن أخلق كيانًا يسمى «حياة العدوى»، رسمت خططًا مختلفة كي أكون من أهم الإعلاميات المتواجدات في مصر، وجَّهت نظري فقط على أن أكون رقم

واحـد في كل شيء، رغـم إنني كنـت أضـع لوحـة كبـيرة في غرفتـي مكتـوب بهـا «ليـس كل مـا يتمنـاه المـرء يدركـه».. لم أيـأس يومًـا، وكانـت لي خطـوات جيـدة ومسـتقيمة، ودائـمًا أكـون الأفضـل بـين زملائـي، وتحقيقـاتي تكـون رقـم واحـد.

الرجـل أحيانًـا يكـون السـند الحقيقـي الـذي يمنـح حبيبتـه السـعادة الخالصـة، تظهـر عـلى وجههـا وابتسـامتها وفي كل تفاصيـل حياتهـا، أحيانًـا يكـون مصـدر كل شيء جميـل لهـا، الـذي يزيدهـا بريقًـا ويضيـف عـلى حياتهـا رونقًـا ومعنـى، يقـف خلفهـا ليدفعهـا للأمـام، يعطـي دون أن ينتظـر منهـا أي مقابـل.. وأحيانًـا أخـرى نجـد رجـلًا كالفـيروس الـذي يدخـل الخليـة في صمـتٍ ويدمرهـا بهـدوءٍ، نعـرف حبيبتـه مـن عيونهـا الممتلئـة بالحـزن والأسـى، رجـل دخـل حيـاة أنثـي كانـت تشـع سـعادة ونشـاط ونجـاح، ليدمـر كل شيء بهـا، أصبحـت معـه كلعبـة «البـازل» كل شيء بهـا لم يبـقَ في مكانه الطبيعـي، ويقتـل الحيـاة بداخلهـا.. كان هـذا الرجـل هـو مـراد، الذي دمَّـر حيـاتي بـدون أي مبالغـة.

***

بعـد أن مـر عامـان عـلى تواجُـدي في الجريـدة، اجتمـع بنـا رئيـس التحريـر، ووضـع جـدول أعـمال جديـد بتقسـيمات ومهـمات جديـدة لـكلٍّ منـا، وضـع اسـمي أنـا وزميلـة لي بقسـم الحـوادث، وحـدَّد لنـا الأماكـن والمصـادر التـي سـوف نتعامـل معهـا بطريقـة مبـاشرة، وخصـص تحديـدًا منطقـة الجيـزة .

كان الأمـر مفاجئًـا لي جـدًّا، وخاصـة أننـي لم أعمـل بـه مـن قبـل، ولم أتعامـل مـع أقسـام الشرطـة والضبـاط ولا حتـى الحـوادث عمومًـا.. فبعـد انتهـاء الاجتـماع طلبـت منـه أن نتحـدث عـلى انفـراد.

– يـا ريـس أنـا مـش هقـدر اشـتغل في القسـم دا فعـلًا، أنـا مـا أعرفـش أي حاجـة فيـه حتى مـا أعرفش خـبر الحـوادث بيتكتـب ازاي!

– عيـب تقـولي الـكلام دا يـا حيـاة، إنتـي صحفيـة، والصحفـي الشـاطر هـو الـلي بيقـدر يشـتغل في كل الأقسـام ويكتـب في كل المجـالات.

– عارفة يا فندم، لك..!

– مالَكنـش يـا حيـاة، اتعلمـي، اقـري، أنـا اخترتـك إنتـي تحديـدًا علشـان انتـي حـد مسـئول، ولمـا بيتطلـب منـك حاجـة بتعمليهـا عـلى أكمـل وجـه، ومتأكـد إنـك هتنجحـي.

– دي شـهادة أعتـز بهـا يـا ريـس، لكـن أنـا أقصـد إني خـلاص نجحـت مـع مصـادري الحاليـة وكوِّنـت علاقـات قويـة في قسـم المحافظـات، وشـغلي بقـى أسـهل.

– بالعكـس انتـي تقـدري تتميـزي أكـتر في قسـم الحـوادث، وزي مـا عملتـي مصـادر قويـة في القسـم السـابق هتقـدري تعمـلي كـدا كـمان في قسـم الحـوادث.

– بس يا افندم أنا مابحبش الظباط ولا بحب أتعامل معاهم.

– عـارف قصـدك إيـه، وعشـان أنـا عـارف إنـك ب ١٠٠ راجـل، اخترتك.

خرجت من مكتبه وكان بذهني أفكار متشابكة، ما بين إني متحمسة جدًّا، وخائفة جدًّا، بكلماته التشجيعية لي وثقته بي، جعلني أصر على النجاح.

قرأت كثيرًا في أخبار الحوادث، وكيفية صياغة الأخبار، تعلمت من زملائي الذين يعملون أيضًا بقسم الحوادث، وتحدثت مع زميلي الذي أخذت مكانه، وأخذت منه أرقام المصادر الذين كان يتعامل معهم، وبالتأكيد كانوا كلهم ضباط شرطة.

قسمت مع مها زميلتي مهام العمل بيننا، وقمنا بتقسيم منطقة الجيزة بيننا، توليت أنا مديرية أمن الجيزة كلها، وهي تولت أقسام الشرطة بمنطقة الجيزة أيضًا.

***

في صباح يوم الاثنين الموافق ١٢ أكتوبر ٢٠١٣، استيقظت من نومي، وأنا أضع كل أحلامي جانبًا، وأركز على واقعي، أخذت حمامي الدافئ، ووقفت أمام دولاب ملابسي أكثر من نصف ساعة أختار ملابس تليق بهذا العالم الذكوري الذي سأقتحمه لأول مرة، وبعد أن ارتديت وخلعت أكثر من زِي، استقررت في النهاية على قميص أبيض بسيط وبنطلون جينز، أسدلت شعري بطريقة منمقة وماكياج نهاري بسيط.. قدت سيارتي الصغيرة وتوجهت إلى مديرية أمن الجيزة.

بعد وصولي للمديرية، وقفت أنظر لهذا الصرح الكبير، المليء

بالشرفات والمكيفات، أطلت النظر له وأنا أسأل نفسي: كيف أخترق هذا المكان الكبير؟ وما المدة التي سأحتاجها في دراسة هذا المبنى.. توجهت إلى البوابة بخطوات مرتعشة لكني أظهر عكس ذلك.

أوقفني عسكري شرطة وهو ينظر إلى نظرات عميقة ودقيقة، كان بجانبه رجلان آخران، أعتقد أنهما شرطيان أيضًا، كانوا جميعًا يحملقون بي، وعلى وجوههم ابتسامة بلهاء.

- أيوه يا مدام.

- آنسة من فضلك.

- أيوه يا آنسة رايحة فين؟

- أنا صحفية وطالعة أقابل كذا شخص.

- فين الكارنيه بتاع سيادتك؟

أمسكت حقيبتي الشخصية لأخرج له كارنيه الصحافة الخاص بي، والثلاثة رجال يتطلعون داخل حقيبتي بشغفٍ، أخرجت الكارنيه وأعطيته له، تفحصه فحصًا سريعًا، ثم رده لي، سألته أن يسمح لي بالدخول، لكنه سألني عن الحقيبة الخاصة ب «اللاب توب»، وطلب مني أن يفتشها، وافقت وأنا أكاد أغلي من الغيظ، أعرف أن كل ما يفعلونه هو مجرد تعطيل لي لإطالة الوقت معهم، لكني تماسكت حتى آخر لحظة.

أخيرًا، سمحوا لي بالدخول، وهم يتبادلون الابتسامات، دخلت على البوابة الداخلية، وأنا أجد نظرات كل الموجودين تلاحقني،

وبنفس الأسلوب الرتيب للعساكر السابقين، تعامل معي أحدهم، وسألني نفس الأسئلة السابقة، وطلب مني ترك البطاقة الشخصية حتى أنهي مهامي.

أطلقوا سراحي، وسمحوا لي بدخول هذا العالم الذكوري، كان كل طابق بالمبنى مكتظًا بالمكاتب ولافتات مختلفة، هممت في سيري وكأنني أحاول اكتشاف كل غرفة بالطابق الأول.

أوقفني أحد أمناء الشرطة متسائلًا ماذا أريد.. نظرت له وأنا شاردة الذهن، ثم أخرجت ورقة مكتوب بها الأسماء التي كتبها لي زميلي وأخبرني بأنني سأتعامل معهم..

- أنا عايزة أروح البحث الجنائي لو سمحت.

- البحث الجنائظي في الدور التالت مش هنا، اطلعي الأسانسير وهما هيقولولك مكانه.

- طيب والعلاقات العامة أروحها ازاي.

- دي في الدور الرابع، حضرتك اطلعي فوق واسألي.

متشكرة جدًّا.

فعلت مثلما قال، صعدت بالأسانسير وسألت أحد العساكر وأخبرني على مكان قسم البحث الجنائي.

- من فضلك كنت بسأل عن العميد محمود الشريف.

- نقولّه مين حضرتك؟

- حياة العدوى، صحفية.

وافق على مقابلتي بعد انتظاري أكثر من خمسة عشر دقيقة، عرَّفته بنفسي وأخذنا أرقام الهاتف للتواصل، وأنهيت مهمتي معه سريعًا لأتوجه لثاني مهمة.

صعدت بالأسانسير مرة أخرى، كي أتجه إلى قسم العلاقات العامة، لا شك أن أكثر المرات التي وجدت أيادي المساعدة تمتد لي كانت في هذه المرة، كل أمناء الشرطة والعساكر يتلهفون إلى مساعدتي.

– أنا صحفية، ومن فضلك كنت عايزة أقابل الرائد هشام أبو جبل.

– الرائد هشام في الراحة النهارده.

– مش فاهمة حضرتك؟ يعني هو فين؟

– أجازة يعني.

– اااه طيب.

– هو النقيب مراد الزغبي موجود مكانه، لو حضرتك حابة تقابليه .

– أوكيه، مافيش مشاكل.

طلب مني أن أنتظر كي يبلغه، ثم عاد لي سريعًا وطلب مني المجيء، فتح لي باب مكتب النقيب مراد، لكنه لم يكن بالمكتب وقته.

– معلش يا أستاذة استريحي شوية ومراد بيه هيجيلك على طول.

مكتب هادئ، بألوان متناسقة لكنها ألوان كاتمة، تليق بشُرطي، كان على المكتب علبة سجائر وولاعة، وهاتفا محمول ومفتاح سيارة بجانبهم فنجان صغير من القهوة، لفتَ نظري كثيرًا لوحة صغيرة معلَّقة على الحائط، بألوان متداخلة ومكوِّنة وجه رجل بلا ملامح واضحة.

دقائق معدودة مرت وأنا أنتظره، لا أعرف لماذا كان قلبي يرتجف في هذه الدقائق.. كان قلبي يشعر وقتها بأن هذه الدقائق ستكون بداية تعاستي، يقولون إن القدر يرسل إشاراته دائمًا، لكننا نتجاهلها كي لا نبصر، وأنا تجاهلت دقات قلبي وقتها، لأنك قدَرٌ، ولا أحد يستطيع أن يهرب من قدرِه.

انتفضت على صوت فتح باب المكتب، كان رجلًا وسيمًا، للوهلة الأولى ستعرف أنه ضابط شرطة، القوة والصرامة و«الهيبة» على وجهه.. نهضت من مكاني بعد أن ألقى السلام عليَّ، واقترب منّي ومدَّ يده للسلام، وهو يرحب بي.

جلس أمامي، ثم مدَّ يده وسحب سيجارة من العلبة التي أمامه وهو ينظر لي مبتسمًا..

– ها قوليلي بقى اسمك إيه ومن جريدة إيه؟

– أنا اسمي حياة العدوي ومن جريدة النهار.

– إيه دا مع حسام فرغلي يعني؟

– مظبوط حضرتك، بس هو راح قسم تاني وأنا جيت مكانه في الحوادث.

– والله، طيب دا شيء جميل جدًّا، خلينا نشوف وشوش حلوة كدا.

تشربي إيه؟

لا أنكر أنه كان لطيفًا جدًّا معي، تعامَل معي كأنه يعرفني من قبل، أو كأننا أصدقاء، استمر بالتعارف عليَّ أكثر؛ دراستي، ومكان سكني، وعمري، كنت مندهشة كثيرًا من هذه الأسئلة التي لا تفيده بشيء، حاولت أن أقتصر الكلام معه، حتى لا تأخذ علاقتنا شكل صداقة أو ما شابه وتبعد عن إطار العمل، أنهيت حواري معه على عجلٍ بحجة أني مشغولة، ثم أخذنا أرقام هواتفنا، والبريد الإلكتروني لمتابعة الأخبار.. في نهاية اللقاء وقف في مكانه ومدَّ يده وسلَّم عليَّ بحرارة.

خرجت وأغلقت باب مكتبه خلفي وأنا شاردة الذهن، هل هذه هي طريقته الطبيعية أم هي طريقته معي أنا فقط؟ هل هو شخص سوي أم لا؟ لكني أقنعت نفسي أنه قد يكون شخصًا اجتماعيًّا ولطيفًا مع كل الأشخاص، مشيت بخطوات سريعة، كي أخرج من هذا المكان الذي يقبض الأرواح حقًا.

***

هناك أشياء لا نري جمالها إلا إذا كانت بعيدة.. بُعد الأشياء أحيانًا يكون أفضل، لو اقتربنا منها نجد عيوبها ومساوءها، كذلك الأشخاص، بعضهم سيكون جميلًا جدًّا كلما كان بعيدًا، و إن اقترب منا وجدنا أشيًاء ما تمنينا أ ن نراها يومًا.

تمامًا كالقمر، كلنا نتمنى أن نقترب منه لكنه في الحقيقة مظلمًا كاتمًا.. كالشمس، يسعدنا دفئها وسطوعها لكن لو اقتربنا احترقنا بنارها.

القرب يُفسد كل شيء جميل، القرب سيء ، كان مراد جميلًا في عيني طوال الوقت وهو بعيد، وكلما اقترب مني كان يتشوه داخلي أكثر، معادلة صعبة أعرف، لكنها الحقيقة التي دائمًا أهرب منها، ليتني لم أقترب منه ليظل جميلًا في عيني.

أنهيت يومي العصيب بعد أن ذهبت إلى مقر الجريدة مرة أخرى لأنهي مهامي المتبقية هناك، عدت إلى منزلي في الخامسة مساءً، كانت الأسرة تتناول وجبة الغذاء في ميعادها المعتاد لعودة أبي من عمله في هذا الوقت يوميًّا، كنت متعبة جدًّا وعلى الفور توجهت إلى غرفتي، وألقيت جسدي على فراشي بقوة.

رن هاتفي داخل حقيبتي الموجودة على المنضدة، استمررت في النظر إلى حقيبتي متمنية لو أن أحدًا يدخل ليعطيني إياها، حتى انتهى الاتصال الأول بدون رد، لحظات وعاد الهاتف يرن مرة جديدة، مما اضطرني أن أنهض وأحضره من حقيبتي.

« نقيب مراد؟؟ ودا عايز ايه دا!! آآه ابتدينا» حدَّثت نفسي بهذه الكلمات ثم اضطررت أن أرد عليه.

- ألو.

- إزيك يا أستاذة.

- الله يسلمك يا مراد بيه.

– حبيت أطّمن عليكي، بما إنك أول مرة تيجي عندنا المديرية.

– ربنا يخلي حضرتك، كله تمام واليوم عدى على خير.

– طيب الحمد لله، عمومًا إحنا مع بعض وهنتواصل دايمًا.

تسللت إلى عقلي إشارة لم أكن أعرف مصدرها، تخبرني بأن هناك قصةً ستربطني بهذا الرجل، شعرت حينها أن معرفتي به لن تمر مرور الكرام، ولن يكون ضيفًا خفيفًا.

اتصلت بزميلي حسام، الصحفي السابق بقسم الحوادث، كي أعرف أكثر عن نقيب مراد، وأتلقى منه نصائح في تعامُلي مع ضباط الشرطة.

– مراد الزغبي.. دا راجل قفل كدا ووشه قافل قفله منيلة.

– وشه قافل!! إنت متاكد إنك تقصد اللي بتكلم عنه؟

أيوه يا بنتي، دا آخر واحد كنت بتعامل معاه من كتر ما هو ثقيل.

نظرت له وأنا في حالة دهشة، حاولت الربط بين كلامه وبين طريقته معي غير المريحة بالمرة، لكن هذا جعلني أخشاه وقررت التحفظ معه أكثر.

نصحني حسام بأن أكون قوية الشخصية مع أي ضابط، وألا أتهاون مع أحدٍ منهم في طريقتي وأسلوبي، أنتبه لحديثي وابتسامتي وسلامي ونظرة عينيَّ، حتى في طريقة ملابسي.

دائـمًا أخشـى الفشـل وأكرهـهُ ولا أتقبَّلـه أبـدًا؛ لذلـك كنـت أتحـدى نفـسي كـي أنجـح في هـذا القسـم وهـذه المسـؤولية.

تعلمـت كيـف أبتسـم لـكلام سـخيف لا يـروق لي، وأضحـك عـلى نـكات ليـس لهـا أي طعـم، وأرد عـلى مكالمـات ضبـاط وأمنـاء شرطـة رغـمًا عـن أنفـي، تجـرأت مـع الوقـت، واعتـادت قدمـي عـلى مديريـة الأمـن وأقسـام الشرطـة، حتـى إننـي لم أعـد أرتجـف عندمـا أرد عـلى مكالمـة ضابـط إلا هـذا الشـخص، «مـراد بـك»، لم أطمئـن يومًـا لـه، كنـت دائـمًا أنتفـض عندمـا أجـد اتصـالًا منـه، أخشـى أن أنظـر في عينيـه، حتـى إننـي قـررت أن أقطـع علاقتـي بـه، وخاصـة بعدمـا قويـت مصـادري بالمديريـة، كلـما ذهبـت إلى المديريـة، أمـرّ عـلى مصـادري سرًّا، ولا أمـرّ حتـى مـن نفـس طابـق مكتبـه.

كنـت جديـرة بـأن أواجـه، أعـترف بجـرأتي وشـجاعتي، لكـن كان هنـاك شيءٌ ينبهنـي ويحـذرني منـه، لم أفـسره حينهـا لكنـي دائـمًا أسـتمع إلى نصائـح قلبـي وإحسـاسي.

***

في نهار جديد حار شمسه ملتهبة، توجهت إلى مديرية الأمن، وكعادتي أذهب إلى مصادري خلسة، دخلت المديرية وركبت الأسانسير، وبعد أن قام العسكري بإغلاق بابه، قام عسري آخر ينادي عليه لينتظر، ثم عاد ليفتح باب الأسانسير مرة أخرى، لأجد «مراد» في وجهي يدخل الأسانسير، رفعت عيني لأنظر له وظهر على وجهي الارتباك، ابتسم هو ابتسامة عريضة كأنه ينتظرني من زمن.

رحب بي ترحيبًا حارًا، ومد يده يسلم عليَّ وهو قابض على يدي قبضة اشتياق واضحة، سألني لمن ذاهبة في المديرية، أخبرته بسرعة شديدة أنني بالتأكيد كنت صاعدة له أو لمكتب العلاقات العامة، ابتسم وطلب من العسكري أن يصعد إلى مكتبه.

خرجنا من الأسانسير واتجهنا إلى مكتبه، كنت أسير خلفه، أنظر إليه وهو يمشي بكل ثقة وكِبر واضحين، أشم رائحة عطره التي تتبعثر منه كلما مضى.. نهض أحد العساكر الجالسين أمام مكتبه مسرعًا ليفتح له الباب، ثم دخل وطلب مني الدخول.

– إيه يا أستاذة فينك؟ مش بتيجي بقالك كتير ليه؟

– جيت مرة بس حضرتك كنت في الراحة.

– آه، واتصلت بيكي مرة قبل كدا بس لا رديتي ولا رجعتي اتكلمتي.

– معلش يا مراد بيه، اعذرنا، إحنا والله مش بنرتاح خالص.

- لا لا هما الصحفيين كدا بتوع مصلحتهم.

أصر أن أشرب معه أي شيء، طال الحديث بيننا هذه المرة، تحدثنا في كل شيء، عني وعن عملي، تحدث عنه أيضًا وعن عمله الحالي والسابق، كنت أنظر إلى ساعة الحائط التي أمامي خلسة كي لا أحرجه، لكنه كان مستمتعًا بالحوار، حتى رن هاتف المكتب، وطلب مني أن أنتظر دقائق، لكني نهضت وأخبرته أنني يجب أن أرحل أيضًا، وافق أخيرًا وسلَّم على سلامه الحميم المعتاد، أخبرني أنه لم ينهِ حديثه معي وأنه سوف يتصل بي.

رحلت بعد أن مضى أكثر من النصف ساعة، خفت أن أمرّ على مصادري في هذا اليوم توقعت أنه يراقبني، توجهت مباشرة إلى سيارتي، جلست وأنا ألوم روحي على جلوسي معه كل هذا الوقت، أعاتب نفسي لماذا لم أخبره أنني قادمة لأخذ مهامي الوظيفية فقط وأرحل، أفكر بالعساكر الذين كانوا جالسين بالخارج ما الذي قالوه عني بعد أن جلست معه هذا الوقت.

قد يكون الحب هو السلاح الذي نستخدمه إما في تدمير أنفسنا أو تدمير غيرنا، ففي كل قصص الحب هناك ضحايا، هناك من يتعمد تدمير القلوب، وهناك من لا يقصد، وهذا ما فعلته مع «جاسر» ابن عمي، الذي جرحته دون أن أتعمد لحظة واحدة.. أحبَّني منذ صغره، حتى أصبح الآن عمره يتجاوز الثلاثين وهو ما زال يحبني ويتمنى وصالي، لكن الحب مثل المرض يصيب القلوب فجأة، دون أن نكون لنا حق الاختيار.

«جاسر» هذا الشاب الناجح، فرغم صغر سنه لكنه حقق الكثير في عمله بمجال هندسة الديكور، وأنشأ مكتبًا خاصًا به.. لا أنكر أنني للحظات ألوم نفسي لأنني أتجه دائمًا لمن يتسببون لي بأذى، وأترك هذا الشخص الذي سوف يحميني من أي سوءٍ، لكن هناك بشر لا يحبون الطرق المستقيمة أبدًا، يكرهون القصص المنيرة، وأعترف أنني واحدة من هؤلاء الأغبياء.

***

تنبيه نغمة الفيس بوك الخاصة بي أثناء كتابة أحد الأخبار، فتحت صفحتي الشخصية فوجدت طلب صداقة من مراد، أمرٌ لم أتوقعه بعد، كيف حصل على حسابي الشخصي؟ وما الذي جعله يضيع وقته في البحث عني؟ هل الأمر مهمٌّ له لهذا الحد ؟ توترت جدًّا في هذه اللحظة، وسألت روحي متعجبة: «هو عايز منّي إيه الراجل دا!!»، «شكله كدا محتاج يشوف الوش التاني بجد».. تجاهلت طلب صداقته، وأكملت عملي.

في اليوم التالي، وبعد أن أنهيت عملي في الرابعة عصرًا، خرجت من مقر الجريدة متجهة إلى سيارتي، رن هاتفي وأنا أمسكه بيدي، فوجدت المتصل هو «مراد»، أخذت نفسًا وكنت قد نويت أن يرى أسلوبًا جديدًا خاليًا من أنواع الذوق، فتحت المكالمة وكأنني أتوعد له.

ورددت عليه بكل صرامة وبنبرة صوت مختلفة عن السابق:

- أيوه يا افندم.

- إزيك يا أستاذة؟

- الحمد لله، خير كان في حاجة؟

صمت قليلًا، وكأنه يتعجب من طريقة كلامي، لكنه أخذ كلامي بطريقة مزاح..

- لا خير إن شاء الله، أنا قُلت أتطمن عليكي.

- متشكرة جدًّا.

- طيب انتي مالك؟ في حد مضايقك ولا إيه.

- لا ما فيش، وأعتقد إن المفروض ما يكونش فيه مكالمات بينّا غير لو شغل بس حضرتك.

صمت هو مرة أخرى، وتلعثم في الرد، ورغم أنني كنت أتحدث بمنتهى القوة، إلا أنني كنت أخشى رد فعله العنيف، لكن رده كان غير متوقع فعلًا..

- أنا آسف يا أستاذة، آسف.. ما أعرفش إني مضايقك بالشكل دا، عمومًا أنا مش هضايقك تاني، سلام عليكم.

أغلق المكالمة، لكني شعرت أنني تسرعت في رد فعلي هذا، وأنني يمكن أن أكون أسأت الظن به.. تراجعت، وفضَّلت أن أكون قليلة الذوق أفضل من أن تسوء سمعتي.

مرَّت ثلاثة أيام على هذا الموقف، وتقابلنا في أحد المؤتمرات التي يحضرها مدير الأمن، رأيته قبل أن يراني، شعرت وقتها بالخجل منه، كنت أختبئ حتى لا يراني، لكني ضربت كل ما حدث بعرض الحائط وتظاهرت بأن كل شيء على ما يرام.

لمحني بعينيه للحظة، وبعدها اختفيت وسط الزحام، وقفت بعيدًا لكنني كنت أراه.. كان واقفًا يبحث عني بعينيه بطريقة واضحة، يحملق بكل الوجوه بدقة، فقررت أن أحنو عليه وأجعله يراني، واقتربت منه كي يرى وجهي، حتى وقعت عيناه عليّ، ابتسم لي قليلًا وهز رأسه كأنه يلقي التحية.

لم أجد وقتها تفسيرًا لكل أفعاله هذه، ولم أجد تفسيرًا أيضًا على خوفي منه بهذا الشكل، لكن في الحقيقة شعرت أنني كنت قليلة الذوق جدًّا معه، وخاصة بعدما وجدته يبتسم لي ولم يتجاهلني في أول لقاء بيننا بعد طريقتي الأخيرة معه.

قررت أن أتصل به ألطِّف الأجواء بيننا قليلًا، ودون أي تردد اتصلت به بعد عودتي من المؤتمر..

– إزيك يا مراد بيه؟

– الحمدلله، إزيك انتي يا أستاذة؟

– الحمدلله، أنا بس كنت عايزة أعتذرلك على طرقتي آخر مرة.

– أنا أكيد زعلان، وما أعرفش أنا عملتلك إيه يخليكي تتعاملي معايا كدا.

– ممكن أحتفظ بالأسباب لنفسي؟

– ماينفعش، لأنها أسباب متعلقة بيَّا، لو في سوء تفاهم أو موقف شخصي ياريت أعرفه.

– كل الموضوع إني مابحبش أحوّل أي علاقة شغل لصداقة أو غيرها.

– أنـا ماطلبتـش منـك كـدا، أنـا اتعاملـت معاكـي بلطـف لأن دا طبعـي مـع أي حـد، أنـا شـخص اجتماعـي، وبحـب الـلي يتعامـل معايـا يكـون في بينـا ود مـش علاقـة مصلحـة.

كلـمات قليلـة وبسـيطة جعلتنـي أصدِّقـه، وشـعرت أننـي تسرعت في الحكـم عليـه.. حتـى إننـي أقنعـت قلبـي أنـه أخطـأ في سـوء النيـة؛ لذلـك قـررت أن أفتـح البـاب قليـلًا، وأتعامـل معـه بمـودة أيضًـا، حتـى لا أخـسر علاقـات قـد تفيـدني فيـما بعـد.

إصرار مـراد لم يكـن هينًـا أبـدًا، شـخص لديـه إصرار وعنـاد لم أرهمـا بأحـد نهائيًّـا.. كان مُـصرًا أن أثـق بـه وأن نكـون أصدقـاء أو أكثـر، ولم ييـأس لحظـة.

بعـد مكالمـة هاتفيـة لا تتجـاوز مدتهـا ثـلاث دقائـق، اسـتطاع مـراد أن يجعلنـي أغـيّر نظـرتي بـه، وأقـرر أن أعتـبره مصـدرًا مقربًـا فقـط ليـس أكثـر.. وكـي يكسـب ودي أكثـر، أصبـح يسـاعدني أكثـر في عمـلي، ويرسـل لي أخبـار الحـوادث الحصريـة، لا أنكـر أنـه سـاعدني كثـيرًا في هـذا القسـم الجديـد، وتمكنـت مـن إثبـات نفـسي بالأخبـار الحصريـة، ممـا عـزز هـذا ثقتـي بنفـسي أكثـر.

بعـد أسـبوع واحـد مـن علاقتـي بـه التـي لم تتجـاوز حـدود العمـل مـع علاقـة صداقـة طفيفـة، رن هاتفـي في السـاعة الواحـدة بعـد منتصـف الليـل، وكان مـراد هـو المتصـل، كان عـليَّ أن أجيـب عـلى اتصالـه لعلـه خـبر عاجـل جعلـه يتصـل في هـذا الوقـت لأول مـرة.

أجبـت عـلى اتصالـه في الواحـدة، وأغلقـت معـه في الثانيـة بعـد

منتصف الليل، مرت ساعة على حديثي معه دون أن أنتبه.. لم يكن اتصاله بسبب خبر عاجل، ولم أمتعض بعد علمي أنه ليس اتصالًا هامًا، بعد أن أخبرني أنه أراد أن يطمئن عليَّ فقط.

كنت لأول مرة أتحدث معه بشغف وأستمع له جيدًا، لم يكن مملًا أبدًا، تحدث معي بكل عفوية وشعرت تجاه حديثه بالصدق والتلقائية، أتذكر صوته وصوت ضحكاته العفوية، لا زال رنينها في أذنيّ.. تحدثنا في كل شيء من حولنا، قصَّ لي عن ذكرياته في كلية الشرطة بطريقة كوميدية جعلني أضحك من قلبي، أنا أيضًا أخبرته عن طرائف عملي بالصحافة.. كنا نضحك وكأننا أصدقاء منذ فترة كبيرة..

ستون دقيقة فقط جعلتني أزيل كل الأسوار التي بنيتها بيننا، وأن أفتح الأبواب التي أوصدتها في وجهه مرارًا، كنت على يقين أننا فقط أصدقاء، أخبرت نفسي لمَ لا نكون أصدقاء مقربين بعيدًا عن العمل، لا أعرف ما الذي جعلني أشعر من هذه المكالمة الهاتفية بطيبته وسجيته، أحيانًا كثيرة نرى الحقيقة واضحة لكننا نتعمد أن نتجاهلها ونخلق حقائق مزيفة حتى نسير في طريق لم يرضِ عقلنا أبدًا..

الطريق لم يكن يومًا معتمًا، فالبدايات وحدها كانت كفيلة أن تُنيره..

اقتربنا أكثر، أصبح يومًا بعد يوم جزءًا أساسيًا في حياتي، في أقل من شهرٍ احتل مكانة مهمة في يومي، وأنا أيضًا أحتللت جزءًا كبيرًا في حياته ويومه..

لا أبدأ يومي إلا برسالة صباحية منه، ولا أغفل قبل أن أنهي يومي بصوته.. لم أسمح لعقلي أن يبعدني، ورغم عدم ثقتي بأي شخص إلا أنني أطلقت له العنان بكل شيء.. شيء ما يسحبني تجاهه، ولا أنكر أنني كنت مسالمة.. لا إشارات تحذيرية ولا عوائق تمنع قلبي من المجازفة.

لا يمكن للقلب أن ينجو من قصة حب أرادها له القدر، جازفت أنا في قصص كثيرة قبل مراد، جازفت بقلبي الضعيف وعقلي القوي، كل القصص التي مررت بها خذلت قلبي، أخذت من روحي وسنوات عمري.. تهالك قلبي وتعب عقلي من كل القصص المثيرة للشفقة، ومن بعدها قررت أن أحمل ما تبقى من قلبي وأكتفي بهم في حب نفسي فقط.

رغم خوفي الكامن من علاقتنا التي تتطور يومًا بعد يوم، لكنني تركت قلبي يفرح باللحظات التي يتركها لي، لحظات فرح كنت أجدها في رنين ضحكته التي أحبها كثيرًا، في اهتمامه بكل تفاصيل يومي، في تعليقاته الساخرة التي تجعلني أضحك من الأعماق.. كنت أحتاج لشيء يقتل الروح البائسة التي أعيش بها، شيء يمحو روتين حياتي المميت.

لم أحبه وقتها، لكن قلبي تعلق به، وما أصعب إذا القلب تعلَّق بروحٍ..!

***

اتصل بي في نصف يومي، كان كلامنا في عمله، أخبرني في عجالة وبكلمات مختصرة و بصوت منخفض كي لا يسمعه أحد.

– اعملي حسابك أنا هشوفك بعد ما أخلَّص شغلي، أنا زهقت من كتر ما أنا بشوفك في المكتب وسط العساكر، أو في المؤتمرات الرسمية.

لم أجب على طلبه لكني اكتفيت بضحكة لأعلن بها موافقتي، أنهيت عملي في الخامسة مساءً واتصلت به لأساله إلى أين سوف نذهب، حدَّد معي كافيه، وكان في الزمالك، قبل أن أتحرك بسيارتي، أنزلت مرآة السيارة باتجاه وجهي، وأخرجت من حقيبة يدي عددًا من مستحضرات التجميل كي أزيل شحوب وجهي المتعب من مجهود العمل، ووضعت نفحات من عطري المفضل، ثم اتجهت بسيارتي إلى الزمالك.

جلست أنتظره داخل الكافيه، بعدما هاتفني وأخبرني أنه عالق بالزحام، لا أعرف كم من الوقت مر، لأنني استحنت تأخره وأنجزت بعض من الأعمال المتراكمة عليَّ، حتى وجدت يدًا تربت على كتفي، رفعت رأسي لأجده مبتسمًا.. ألقى التحية عليَّ ثم جلس أمامي.

كانت هذه أول مرة نلتقي بمكان بعيدٍ عن أعين ضباط وعساكر الشرطة، المرة الأولى التي أتمكن من النظر إليه دون خوف أو حذر.. لكن كعادته هو يُطيل النظر إليّ، ويتفحص كل شيء بي، وبعد وصلة من المغازلة والإعجاب، طلب أن نأخذ وجبة الغذاء سويًّا.

كنت سعيدة جدًّا، لا أهتم بوقت أو بأي شيء، كنت سعيدة ولم أعلم سبب هذه السعادة، تحدثنا أثناء الغداء عن أشياء كثيرة، وكعادته يجعلني منصتة له بشكل كبير، سألني لماذا لم أرتبط حتى الآن، أخبرته بأنني جربت أكثر من مرة وفشلت وقررت أن أعيش فقط لروحي، أجابني متعجبًا، كيف يستطيع أحد أن يجرح أو يبتعد أو يخون هذا الملاك، ضحكت بصوت عالٍ.

– ملاك هههههه.. إيه الكلام دا يا مراد؟ مافيش حد ملاك، كلنا بندّعي إننا مافيناش عيوب.

– ليه ضحكتي؟ أنا فعلًا شايفك ملاك.

– أكيد مافيش حد طول الوقت بيتظلم.. لازم بيجي وقت وبيظلم.

– وانتي ظلمتي؟

– ظلمت ناس كتير حبوني وأنا ماقدرتش أحبهم.

تحدثنا كثيرًا عني وعن تجاربي، وهذا جعلني أكون أكثر فضولًا، وأساله عن حياته وعلاقاته.

– سيبك مني شوية، واحكيلي إنت ظلمت واتظلمت كام مرة؟

– الأول بس في حاجة انتي لسه ماعرفتهاش عني.

– حاجة إيه؟

– أنا متجوز وعندي ملك.

ارتعشت يدي التي أحمل بها كأس الماء، صمتُّ وأنا انظر إلى صحن طعامي، شيء لم أتوقع أن أسمعه نهائيًّا، لم يخطر ببالي على الإطلاق.. قلبي اهتز داخلي ولا أعلم لمَ! أأحببته!! لا لا أظن، كل ما في الأمر أنني فقط صُدِمت.. نظرت له بابتسامة بلهاء ليس لها معنى، وسحبت منديلًا ورقيًّا أمسح يدي، بعادتي لا أبدي رد فعل سريع، دائمًا أحتاج دقائق أترجم أي موقف مفاجئ ثم أعود للرد.. استأذنت منه أن أذهب لأغسل يدي.

دقائق وأنا ألوم روحي على هذا الشعور غير المفهوم، نظرت إلى نفسي في المرآة، أخبرها أن الأمر لا يستدعي كل هذا، إنه مجرد صديق متزوج، لا يعنيني أبدًا أمر زواجه.. خرجت له وأنا أتعمد إظهار الثبات واللامبالاة، غيَّرت معه الحديث وتحدثنا عن موضوع آخر، وفي منتصف حديثنا سألته:

- إنت ليه ماقولتليش إنك متجوز؟

- مش عارف.. بس يمكن ماجتش فرصة.

مر الوقت سريعًا، وجاء وقت الرحيل، خرجنا معًا واتجهنا إلى جراج السيارات، لم أتمكن من إخفاء مشاعري الغامضة المعالم، كنت صامتة وهو حاول أكثر من مرة أن يجعلني أضحك.. وصلنا أمام سيارتي، مد يده وصافحني وهو يخبرني أنه سعيد جدًّا بهذا اليوم وبالتأكيد سيتكرر، أخذت سيارتي ورحلت.. طوال الطريق كنت أفكر في سبب جعلني أحزن بعد علمي بزواجه، قد أكون على مشارف حبه؟! لا أعلم حينها، لكن كان عليَّ أن أمحو أي أفكار أو مشاعر كانت تنتظر أن تعبُر.

عـدت إلى منـزلي ودخلـت إلى غرفتـي، حاولت أن أسـتكمل عملي، لكنـي فقـدت التركيـز، أغلقـت الحاسـوب وجلسـت عـلى فـراشي، نظـرت إلى السـاعة كانـت الحاديـة عـشرة، كيـف مـر كل هـذا الوقـت في التفكـير، كنـت أنظـر إلى هاتفـي بـين الحـين والآخـر.. لم يتصـل بي، عقـلي ظـل شـاردًا، لا شيء يريحـه سـوى أن أسـمع كل تفاصيـل زواجـه، فتحـت «الكمبيوتـر» مـرة أخـرى، وتوجهـت مبـاشرة إلى موقـع فيـس بـوك، ثـم دخلـت إلى صفحتـه الشـخصية، أبحـث بـين أصدقائـه عـن زوجتـه التـي لا أعـرف حتـى اسـمها، أبحـث عـن إعجـاب أو تعليـق لهـا، لكنـي لم أجـد أي شيء، حتـى رن هاتفـي، كان هـو المتصـل، اعتـذر لي عـلى تأخـره في اتصالـه، وبـرر هـذا بانشـغاله.. تحدثنـا قليـلًا بموضوعـات مختلفـة، ثـم طلبـت أنـا منـه أن يتحـدث أكثـر عـن زواجـه، كـي أجـد إجابـات عـلى جميـع أسـئلتي.. أخـبرني أنـه تـزوج منـذ عامـين ولديـه ملـك تسـعة أشـهر، قـال لي إنـه كان مجـرد زواج تقليـدي.

– أبوهـا مستشـار صديـق أبويـا، أخوهـا ظابـط وجـوز أختهـا وكيـل نيابـة، تقـدري تقـولي كان جـواز مصالـح.

–هي بتحبك؟ وانت بتحبها؟

– بتحبنـي أكيـد، بـس أنـا في الأول كنـت حاسـس إني بحبهـا لكـن دلوقتـي لا.

– ليه؟

– إحنـا مـش شـبه بعـض، هـي مملـة ومابقتـش قـادرة تسـتحمل

طبيعة شغلي، وأنا مابقتش قادر أتحمل نكدها وخناقها وصوتها العالي وزعلها على أبسط الأمور.

كنت على يقين وقتها أن زوجته أيضًا مظلومة، رغم حرصه الشديد على أن يكون كالملاك أمامي، لكني لا أنكر أيضًا أنني تعاطفت معه وشعرت أنه مفتقدٌ للسعادة في حياته.

مسحت كل الأفكار التي كانت تحوم في عقلي تجاهه، وكل المشاعر التي كادت أن تتملكني، قررت أن أتعامل معه كالسابق، صديق فقط حتى وإن كنا صديقين حميمين، المهم ألا تخرج علاقتنا عن هذا الإطار.

***

ليس بالضرورة أن نكون أقوياء طوال الوقت، لا بُد أن يأتي وقت ونصبح ضعفاء حتى لو كانت لحظات، رغم حرصي طوال الوقت على أن أكون قوية لكني في أوقاتٍ كثيرة يسيطر عليَّ ضعفي الذي يسكن ذاتي.. أنا لست قوية، أنا ضعيفة وهشة، أدّعي القوة دائمًا لكنني أضعف من أي شيء ضعيف، أبكي وحدي في غرفتي، في سيارتي، في أي مكان بعيد أكون أنا فيه فقط.

علاقتي بمراد كانت تقوى كل يوم يمر، تجاوزنا الصداقة، وأصبحنا أكثر من أصدقاء، تتطور علاقة مخيفة كل يوم، رغم إصراري على ألا تتجاوز مشاعري علاقة الصداقة، إلا أنني أجد نفسي أتعلق به مع كل يوم يمر، دائمًا كنت أهرب من تفسير عقلي لمشاعري تجاهه، أكذب على روحي كل لحظة، وأقنعها بأكاذيب.. أقنعها أنني فقط أتعلق به كصديق مقرب ليس أكثر، لكني أعرف في قرارة نفسي بأنني أكذب، خوفي عليه واهتمامي به ومراقبتي لنومه وصحوته، لم يكن كل هذا مشاعر صداقة فقط.. ورطة هكذا.

في السادس من فبراير والموافق يوم ميلادي، اتصل بي مراد الساعة الثانية عشرة في منتصف الليل، كان أول المهنئين بعيد ميلادي، شعرت بسعادة غامرة، كنت أعتقد أنه لم يتذكر هذا التاريخ، لكن خيب ظني واتصل بي وهنأني بكلمات بسيطة لكنها كانت عظيمة لقلبي.

في صباح يوم ميلادي وكعادتي اليومية أستيقظ لأذهب إلى

عملي الذي لا أملك سواه في الحياة، داعية ربي أن يكون عامًا جيدًا.. دخلت مكتبي فوجدت أصدقائي يحتفلون بعيد ميلادي، بكعكة بها شمعة رقم ٢٥ كناية عن عمري، ظلوا يغنون لي وأنا في غاية السعادة.

اتصل بي بعد أن أنهينا الاحتفال وعاد الجميع إلى مكتبه، ليجدد معايدته ويخبرني أننا لا بُد أن نتقابل اليوم ونحتفل سويًا، اتفقنا أن يكون الميعاد في الثامنة مساء، حتى أعود لمنزلي وارتدي ملابس أخرى، وأخبرني أنه سيمر عليَّ ونذهب سويًا بسيارته.

أنهيت عملي وعدت إلى منزلي سريعًا، لآخذ حمامًا دافئًا معطرًا، وأستعد للقائه.. بعد وقت من الحيرة ارتديت فستانًا أسود بسيطًا وأسفله شراب أسود شيفون وحذاء أسود بكعب عالٍ، ووضعت ماكياجًا بسيطًا بالعيون ولونًا أحمر على شفاهي، ثم أسدلت شعري بطريقة منمقة، ووضعت رشات من عطري المميز، وأخذت معطفي على يدي وكنت جاهزة للخروج.

اتفقت معه أن ينتظرني بمكان بعيدٍ عن منزلي، ثم أخذت سيارتي وتوجهت إلى مكانه، حتى وصلت عنده، ركنت سيارتي بجانب سيارته، وتوجهت لأركب معه.

كان يراني بمرآة سيارته، وعندما اقتربت منه، خرج من سيارته وعيناه تمتلئان بالدهشة.. والعجب، متسائلًا :

- حضرتك تعرفيني؟

ضحكت بصوت عالٍ، وأنا أمد يدي لأسلم عليه.

- أنا أكيد ما أعرفش حد بالجمال والرقة والأناقة دي.

لازم تقول كدا، ما انت متعود تشوفني وسط العساكر والظباط. -

التف ليفتح لي باب السيارة، لنتوجه إلى المكان الذي لم يبلغني به وأصر أن يكون مفاجأة.

طوال الطريق وهو يمدحني، كنت أضحك من أعماق قلبي، أعشق حديثه وأسلوب حواره المضحك، وجرأته التي تخجلني أحيانًا، كنت سعيدة جدًّا وأنا بجانبه أجلس في سيارته.. أرتبك عندما يلمس يدي دون قصد، كنت سعيدة، وعندما تأتي لحظات كي نسرق السعادة لأنفسنا، لا يمكننا أن نتجاوزها..

أوقَف سيارته بشارع أمام كورنيش النيل، وطلب مني النزول من السيارة، ثم أغلقها وتوجهنا لنعبر الطريق متجهين إلى النيل، سألته أين سنذهب، ابتسم وطلب مني أن أصمت قليلًا، أخذني إلى إحدى المراكب الضخمة، صعدنا الدور الثاني، واستقبله الجرسون، وذهبنا معه إلى منضدة محجوزة باسمه.. كان المكان هادئًا ورومانسيًّا، ليس به زبائن كثيرون.

بعد مرور حوالي عشرين دقيقة على تواجدنا بالمكان، تغيرت الموسيقى الهادئة وجاء بدلًا منها أغنيات عيد ميلاد، وفي هذه الأثناء جاء الجرسون وهو يحمل كعكة بها شموع، لم أستوعب كل هذا، وضعت يديّ على وجهي من الصدمة وأنا أبتسم له، وقف وظل يغني لي ويصفق، ثم طلب مني أن أتمنى شيئًا قبل

أن أطفـئ الشـموع.. لا أجـد شـيئًا أتمنـاه في هـذه اللحظـة غـير أن أدعـو الله أن يبقيـه معـي للأبـد، لا أعـرف لمـاذا تمنيـت هـذا، لكنـي تمنيـت.

ثـم جـاء الجرسـون مـرة أخـرى وهـو يحمـل صينيـة صغـيرة وبهـا صنـدوق صغـير أيضًـا، أخذتـه منـه وفتحتـه، وجـدت سلسـة مـن فضـة بهـا قلـب مرصـع بالفصـوص. .

– ليه عملت كل دا يا مراد؟

– إنتي لسه ماتعرفيش مكانتك عندي ولّا إيه؟

– ماتجاوبش عليَّا بسؤال، كتير أوي اللي عملته دا.

– لا مش كتير عليكي أي حاجة، أنا نفسي أعملك أي حاجة.

نظـرت لـه بعمـق وأنـا أعلـم في قـرارة نفـسي أننـا نرتكـب خطـأ كل يـوم يمـر ونحـن معًـا، نسـير في طريـق ليـس لـه آخـر، ونتعمـد أن نتجاهـل نهايتـه.

جـاءت أغنيـة هادئـة أجنبيـة، أخـبرني أنه يحبهـا جـدًّا، قـام بترديدها لحظـات ثـم نهـض مـن مكانـه ومـدَّ يـده لي وأخـبرني أنـه يـود الرقـص معـي، ابتسـمت ونظـرت خلفـي، ثـم مسـك يـدي فجأة.

و سـحبني لـه، وأنـا أنظـر للذيـن مـن حـولي خجـلًا، وضـع يـده عـلى خـصري وضمنـي لـه، وأنـا أطلـب منـه بصـوت منخفـض أن يتوقـف، لكنـه ظـل يغنـي مـع الأغنيـة ولا يبـالي لحديثـي.

طلـب منـي أن أنسـى كل شيء وأطلـق روحـي تعيـش لحظـات ممكـن ألا تتكـرر.

- مستكترة عليا لحظات أتجنن فيها.

- الناس بتبص علينا يا مراد، هموت من الكسوف.

- سيبيني أكون على طبيعتي اللي نسيتها من سنين، سيبيني أخرج بره دايرة الرسميات المميتة، سيبيني أتجنن وأعمل كل اللي يجي على بالي كدا من غير خوف ولا تفكير.

استمعت له وألقيت بكل أفكاري خلفي، أمسكت يده بقوة لأستكمل معه الرقص، دون أن أنظر إلى أحد، كنت أبتسم له وأنظر لعينيه بكل حب، شعرت حينها أنه لا يوجد أحد غيرنا، أنا وهو فقط.. كان ينظر إليَّ نظرة لا يمكنني أن أنساها طوال سنوات عمري.

لم يتحدث لكن عينه أخبرتني بالكثير، كان يقول لي أحبيني، وكأنه يترجاني لأفعل هذا.

انتهت الأغنية وتوقفنا عن الرقص، جلسنا ولم ننطق بأي كلمة، حتى نظرت في ساعتي وطلبت منه أن نرحل لأنني تأخرت.

توجهنا إلى سيارته، وكلانا صامت، وكأننا تذكرنا الواقع الذي لا يمكننا أن نهرب منه أبدًا، أدار السيارة وتوجه إلى طريق منزلي، ظل صامتًا حتى تحدثت أنا.

- مش عارفة أقولك إيه على اليوم دا يا مراد.

نظر إليَّ نظرة سريعة، ثم أمسك يدى ليقبلها..

- أنا اللي شكرًا يا حياة على السعادة اللي دخلت حياتي من ساعة ماعرفتك.

وصلت منزلي في الحادية عشرة مساءً، صعدت إلى غرفتي وأغلقت الباب، جلست على حافة فراشي شاردة، ثم مددت يدي في حقيبتي أبحث عن هديته، حتى وجدتها وأخرجت السلسلة من علبتها لأرتديها.. نظرتُ في المرآة كي أراها، لم أكن أعلم حينها أنني ارتديت شيئًا سيلتف حول عنقي كل يوم ليخنُقُني.

طوال الليل وأنا شاردة في تفاصيل اليوم، أخبر روحي أنني أحبه، لكن عقلي يسبقني بالنفي، وكأنه رافض أن يصدق.. أصر عقلي أن أنهي كل هذه الفوضى والعبث، وأن أجد حلًّا لهذه المهزلة قبل أن تكبر، طريق مسدود لم أنلَ منه شيئًا، ولن أنجو إن خاطرت.

بعد ساعات اتصل بي مراد، كان وقتها مازال في عمله، ظل يتحدث على ما حدث ويضحك، كنت صامتةً، سألني ماذا بي، أخبرته أنني نعسانة.

قررت أنني لا بُد أن أنهي هذه العلاقة نهائيًّا، حتى إنني لن أحتفظ بعلاقة الصداقة، التي كانت عبارة عن ممرٍّ لقلبي.. قررت أنني سوف أقلل من مكالماتي معه، وأتعامل معه بجفاء قليل، وأبتعد عنه دون أن يفهم شيئًا.. خمسة أشهر من عمري لا بُد أن أمحيهم من ذاكرتي.

غفوت وأنا أعد روحي أنني سوف أبدأ يومًا جديدًا خاليًا من أي مشاعر أحملها لمراد في قلبي.

استيقظت من نومي ولم أرسل له رسالة صباحية كعادتي، ونهضت لأداء الروتين اليومي المعتاد، الخالي من مراد، محاولة مني بالضغط على عقلي الباطن بنسيان مراد الذي تعود عليه في كل يوم.

أثناء قيادتي رن هاتفي، كنت أعلم أنه المتصل، لذلك استكملت طريقي دون أن أنظر إلى هاتفي، بعد وصولي العمل، اتصل بي وأنا في اجتماع، أغلقت مكالمته، بعد لحظات أرسل لي رسالة قصيرة.. «إنتي فين طمنيني عليكي؟»، أجبت عليه برسالة أيضًا، «مراد أنا صحيت متأخر ونزلت مستعجلة وأنا في اجتماع، نتكلم بعدين. «

لم أتصل به أثناء عملي، اتصل هو بي قبل أن أنهي يومي بالعمل، أجبته وأنا أتحدث بطريقة عادية كي لا ألفت انتباهه لأي شيء، أخبرته أنني مشغولة، واختصرت المكالمة جدًّا.

تعمدت أن أسير معه على هذا النمط، حتى يمل ويبتعد عني تدريجيًّا، استمررت على هذا المنوال ثلاثة أيام.. تارة أرد على اتصاله، وأخرى أتجاهله، تارة أتصل به وتارة أخرى أغفو دون أن أتحدث إليه.. كنت أشتاق إليه كثيرًا جدًّا، لكني أعلم أنني أفعل الصواب.

أتصل بي في الثالثة عصرًا وأنا بمقر الجريدة، ولم أجب، أرسل لي رسالة نصية، «أنا تحت المكتب هتنزلي ولا أطلعلك؟»، ارتبكت جدًّا، استأذنت زملائي ونزلت، خرجت من مدخل العمارة

أبحث عنه، وجدت سيارته السوداء المميزة بالزجاج الأسود الكاتم، توجهت له مسرعةً وفتحت باب سيارته وركبت معه..

- إيه اللي انت بتعمله دا يا مراد.؟

- أنا مابعملش حاجة انتي اللي بتعملي..

- بعمل ايه بس.

- متغيرة.. بتبعدي، بتبعديني عنك.

أخذت نفسًا عميقًا معه تنهيدة، نظرت له، كانت نظرة اشتياق أكثر من أي شيء آخر، كنت حقًّا أشتاق له.. أدار سيارته وتحرك لا أعلم إلى أين، لكنني صمتُّ واكتفيت بالنظر إليه.

أوقف السيارة بأحد الشوارع الجانبية القريبة من مقر عملي، ثم سحب يدي ليضعها على قبله، هامسًا: «وحشتيني اوي».

- مراد انت عايز إيه؟

- عايزك تفضلي جنبي، صعبة دي؟

- إنت مش فاهم حاجة، مش فاهم أي حاجة.

- لا فاهم، فاهم إنك حبتيني.

نظرت له وكأنني أريد أن أنفي ذلك، لكنه لحقني قبل أن أرد عليه..

- طيب ما أنا كمان بحبك.

- ماينفعش يا مراد، ماينفعش لا انت تحبني ولا أنا أحبك.

- هو الحب بمزاجنا؟! من إمتى اللي بيحب بيفكر في إنه ينفع ولّا ماينفعش.

- هتبعد عني وانا ما أقدرش إني أتحمل دا.

- حبيني وأنا مش هبعد عنك أبدًا.

- هتبعد عني غصب عنك، إحنا مش عايشين لوحدنا.

- خليكي جنبي وخلاص، لا انتي ولا أنا عارفين إيه المستخبي.

قراري في الابتعاد عنك كان ينقصه الإصرار، كيف يقوم شخص باتخاذ قرار صعب وليس لديه حتى قدر ضئيل من الإصرار!.. الأمور تتعقد وطرق الهروب تبعد، صوتان داخلي يثرثران، ضجيج لا يهدأ.. مثل شخص يقف أمام نهر فائق الجمال يريد أن يعبره ويتعمق به وهو لا يعلم خباياه ولا عمقه.

تركت نفسي قليلًا للحظات لن تتكرر بحياتي، مشاعر جديدة تتحكم بي.. الحب الذي بحثت عنه الآن بين يدي، كيف أتركه ينسكب من بين أصابعي كالماء! طلب مني أن أحبه فقط، أحبه بكل ذَرة حب خُلقت بقلبي، طلب مني أن أمنحه وأمنح روحه معه كل ما فقدناه من حب، أخبرني أنه يريد أن يأخذ منّي كل شيء جميل، أن يمتلك قلبي وروحي، أن أفتح أبواب قلبي على مصراعيها له.. وقد فعلت.

يومًا بعد يوم يتغلغل بأعماقي كمخدر يسكن الجسد ويأسر الروح يوم يلي الآخر.. نتهاتف يوميًّا، كان معي طوال اليوم، إن لم يكن هناك فرصة لنتحدث صوتًا، كنا نتحدث كتابةً.

خصصت له رنة للرسائل الهاتف، ابتسم أثناء انهماكي

بكتابة تقرير صحفي عندما أسمع صوت رسالته الخاصة وأجد بها كلمة واحدة «وحشتيني»، أحيانًا كنت أكتفي بالابتسامة، وأخرى كنت أقوم بالرد عليه «إنت كمان واحشتني».

حتى ليلي الذي اعتدت على وحدته، امتلأ بوجوده معي، يختلس وقت منتصف الليل ويذهب إلى مكتبه لنتحدث سويًّا، أغفل أحيانًا، وأحيانًا أخرى يذهب لاستكمال عمله.. كان أثناء طريقه إلى منزله فجرًا، يقوم بإيقاظي من النوم ويتحدث معي حتى يصل.

كانت رسالته الصباحية التي أراها قبل أي شيء وحدها ما تجعلني أستقبل يومي بسعادة بالغة، رنة رسائله المخصصة تجعلني أبتسم.. فقط أبتسم.

أرسل لي ذات يوم أغنية وأخبرني أنه يريد أن يرقص معي على نغماتها، ضحكت، لكنه وعدني أنه سيفعلها قريبًا في أي لحظة وفي أي مكان.

مر أسبوع على وعده هذا، وجاء موعد لقائنا الذي يحدث صدفة دون اتفاق، كنت معه بسيارته، متجهين لأحد الأماكن التي اعتدناها، وأثناء حديثنا جاءت على مسجل سيارته الأغنية التي سبق وأرسلها لي، نظر لي وابتسمت أنا وهو، ثم قام في لحظة سريعة بالوقوف على يمين الطريق، ورفع صوت الكاسيت جدًّا.. نزل من سيارته ثم فتح لي الباب ومد يده كي أنزل، ضحكت بصوت عالٍ وأخبرته أنني لن أفعل، أمسك

يـدي بقـوة وشـدني إليـه، أخبرتـه وقتهـا أن فقـدان العقـل لا يجـوز طـوال الوقـت، لكنـه لا يبـالي وأمسـك يـدي بيـده اليمنـي، والأخرى التفـت حـول خـصري، ثـم قـام بالغنـاء مـع الأغنيـة بصـوت عـالٍ.

You are too good to be true.. can't take my eyes off you

كنـت أبتسـم فقـط وأنظـر حـولي أراقـب المـارة.. لكننـا كنـا نقـف في شـارع مظلـم ليـس بـه أي شـخص، كان مـن الـضروري أن نكـون وحدنـا لا يرانـا ولا يسـمعنا أحـد، مـن اعتـاد الظـلام يـرى النـورَ عتمـةً.

❋❋❋

مـر ثلاثـة أشـهر عـلى ارتباطـي بمـراد، كل يـوم يمـر أتـورط بـه أكثـر، كل يـوم يمـر تقـوى علاقتـي بـه، ويضمـن بقائـي وصمـودي معـه، كلـما كنـت أحبـه، كان يتملـك منّـي أكثـر..

بـدأ يتحكـم بـكل علاقـاتي المهنيـة والشـخصية، وبـدأت أرى وجهًـا جديـدًا لمـراد عندمـا يغـار، وجهًـا شرقيًّـا بحتًـا، تنفلـت أعصابـه لـو تأخـرت في الـرد عليـه، أو وجـد صـورة لي تجمعنـي بزميـل عمـل، أو ملابـس ضيقـة..

ذات مـرة، ذهبـت إلى مديريـة الأمـن لممارسـة عملـي، مـررت عليـه كالعـادة، الدقائـق الأسـبوعية التـي نختلسـها نظـرًا لانشـغاله.. بعدما كنـت معـه ورحلـت، اتصـل بي مديـر القسـم وطلـب منـي أن أذهـب لضابـط لأتعـرف إليـه لأنـه سـيفيدني في عمـلي، وفعلـت، لكنـي لا أتوقـع أن يكـون مـراد أرسـل عسـكريًّا لمراقبتـي.. قابلـت الضابـط في غضـون عـشرة دقائـق ورحلـت، أخـذت سـيارتي متجهـة إلى مقـر عمـلي، اتصـل بي، أجبتـه بصـدر رحـب، لكنـه صدمنـي بوصلـة مـن الانفعـالات والهجـوم، دون أن يسـتمع إليّ.. حاولـت تهدئتـه وشرح لـه الموقـف، لكنـه لـن يسـتجيب، أغلـق الهاتـف في وجهـي.

عـدت إلى مكتبـي، أرسـلت لـه الكثـير مـن الرسـائل لأوضـح موقفـي.. وبعـد مـرور يـوم كامـل في توضيحـات وتفسـيرات، أنهى هـو ذلـك الخـلاف وقـرر أننـي لا بُـد أن أتـرك هـذا القسـم.

– مـش هينفـع يـا مـراد، أنـا لسـه شـغالة فيـه بقـالي ٤ شـهور بـس وحققـت نجـاح كويس.

اطلبي من مديرك إنك تتنقلي، وقوليله إنك بتتعرضي لمضايقات.

بعد مناقشة حادة ومجادلة طوال الليل، خضعت لأوامره.. وفي اليوم التالي طلبت من المدير أن أنتقل إلى قسم آخر..

الحب ضعفٌ.. دائمًا أقول هذا، كان لا بُد أن أمسك قلبي في يدي كي أكون أقوى وأقدر على أي شيء، لكن الحب يضعف ولا يقوي أبدًا.

***

أيام تمر وأيام تزيد وعمر يمضي، شهر شهران ثلاثة أربعة وخمسة، وليس بيننا علاقة محددة غير أنني أحبه بلا هدف، عندما لمّحت له أكثر من مرة، أن علاقتنا ليس لها نهاية مفرحة، كان يفضِّل الصمت.

كنت لا أقصد أن أقترب منه كل هذا الاقتراب، لا أنكر أن صورة زوجته لا تفارقني في كل لحظة، أضع نفسي مكانها، لا أقصد أن أخونها أبدًا، لا أقصد أن أهين شعورها كل لحظة.. لا أقصد أن أسرق شيئًا ليس من حقي، حتى أول عناق حدث بيننا، كنت أشعر وقتها أن هناك شوكًا يرشق بجسدي..

التفت يداه حول خصري، والتفت يداي حول رقبته أتشبث به.. وكأن هذا العناق بمثابة ممر لكل شيء، لا شك أن العناق هو التعبير الجسدي الوحيد الذي يصف الشعور، احتضنته لكني كنت لم أستمتع لحظة وأفرح، تذكرت أن هذا المكان ليس

مكاني، هذا الحضن خاص بشخص آخر..

بكيت بكاءً أشبه بسيول في ليلة شتوية، انهرت أمامه وأنا بحضنه، أخبرته أنني أحبه ولا أستطيع أن أتصور حياتي دونه.. أخبرته أنني لست أنانية ولا خائنة ولا سيئة، لكن أشعر بالسوء كلما تذكرت زوجته وابنته، لكن كعادته ظل يردد عبارات السخط والبغض من زوجته، وأنه أيضًا لا يقدر على العيش دوني، لكن ليس بيده أي حلٍّ أبدًا..

كنت لا أرضى أبدًا أن يقرر أن ينفصل عن زوجته ويتزوجني حتى وأنه لم يعرض عليَّ حتى، لن أقبل أن أكون سببًا في انهيار بيت وأسرة، ولا أود أن تعيش ابنته نفس معاناتي.. لذلك اخترت أن أضحي وأبتعد عنه.. قررت أن أتحمل مشاعر الفراق وأضغط على مشاعري وقلبي وأرحل، أُطيب قلبي بعبارات مهدئة كي يستكين ويهدأ، أخبر ذاتي أن أمسًا كان أفضل من اليوم، واليوم أفضل من غدٍ.. وبما أن الرحيل لا مفر منه، فالأفضل أن أرحل قبل أن تغوص قدمي أكثر، أرحل بوقت قليل وخسائر أقل..

أخبرته أنني لا بُد أن أنهي هذه العلاقة، رفض واتهمني بأنني لا أحبه، صممت على رأيي دون الاستماع لاتهاماته، استحلفته أن يتركني، أنا لا أقدر على أي ألم.. أخبرته وأنا أبكي أنني الشخص الوحيد الخاسر، لا شيء في حياتي، بلا مسمى، بلا أي صلة.. هو له حياته التي سوف يعود لها في أي وقت شاء، لديه شخص ينام جانبه يأنس وحدته، لديه كائن صغير يلهو معه وينسيه كل أحزانه، لكني لا أملك أي شيء، لا أملك حتى يدًا تربت على كتفي..

- أنا بحبك ومش بفكر في أي حاجة غير إني أفضل جنبك.

- وأنا كمان بحبك، بس مش هقدر أفضل كدا ماليش أي حق ولا ليا أي صفة.

- إنتي بتيجي عليا زي الدنيا ما جت عليا، وخلتني أعيش حياة مش بتاعتي.

- وحياة بنتك يا مراد سيبني.. أبوس إيدك سيبني.

في وسط كل هذا، كنت أتعجب جدًّا من تمسكه بها إلى هذا الحد، ولا أعرف سبب هذا التمسك، لم يعرض عليَّ في أي مرة أن ينفصل عنها ونتزوج، رغم أنني لن أوافق على هذا.. لكن تناقضه هذا مخيف، كيف لا يتحمل وجودها بحياته وبنفس الوقت لا يود أن ينفصل عنها! كيف يعيش معها كل هذا الشقاء ولا يقرر أن يبتعد عنها ويعيش حرًّا..

رغم فضولي الشديد لكني ولا مرة سألته عن هذا حتى لا يفهم أنني أريد أن ينفصل عنها.

***

ابتعدت عنه يومين فقط، وشعرت أنهما عامان، كنت أبكي كل لحظة مثل طفلٍ صغيرٍ، أفتح صوره أنظر له بعمق وكأنني أودع ملامحه، أعود إلى قراءة محادثاتنا، وأبتسم وأنا أبكي.. كنت أضعف من أن أنفّذ هذا القرار، بين نفسي أنتظر منه رسالة أو مكالمة تعيد لي الحياة من جديد، كنت سوف أعود له بعد أن مر يومان وأنا أعيش كل مشاعر الفقد المقيتة..

اتصل بي، لكن هذا الصوت الباقي داخلي لا يهدأ، يخبرني أن أصمد وأبتعد.. أخبرته أنني سوف أرتبط قريبًا، كنت لا أكذب حينها، كان في هذه الأثناء قد تقدم جاسر ابن عمي لخطبتي، أخبرت أبي وقتها بأنه مجرد أخ فقط، حاول إقناعي وأعطاني وقتًا للتفكير، ثم بعدها حدثت هذه المناورات مع مراد، وقررت أن أنهي علاقته بي نهائيًا وأتزوج جاسر، كي أنسى مراد ويبتعد هو عني..

صوَّر لي عقلي وقتها أن هذا حل كي أنسى وأتجاوز هذه الفترة، مثل شخص غريق يحاول أن يجد أي طوق للنجاة، تخيلت أن جاسر هو طوق النجاة الذي سينجيني بعد أن أسحبه لأسفل لأنجو .. لا أقصد أبدًا أن أجني على هذا البريء الذي أحببني بصدق، كنت كالأعمى الذي يتصرف بمنتهى العشوائية..

أخبرت أبي أنني موافقة على جاسر.. هربت من مراد وكل شيء يطاردني، أضخ المخدر بأوردتي، كي أصمد.

في حين أن يتألم قلب، هناك من يقف على عتبة الفرح كي يطيب هذا القلب المكسور، لكن دون جدوى.. لا يحتاج هذا القلب المجروح أي شيء غير الغائب الحاضر.

فرحة كبيرة انتشرت في محيط عائلتي، رحب الجميع بخطبتي على جاسر، في الأساس جاسر نفسه لم يكن يصدق موافقتي، تحدَّث إلى بصوت شجيّ، كنت أشعر بسعادته تملأ العالم، أستمع إليه وهو يغازلني بكل كلمات الحب، وأنا بغباء وضيع أتذكر

مـراد وأشـتاق إليـه.. لا أعلـم كيـف جئـت بـكل هـذه الوضاعـة، لا أعلـم مـا هـذا الكـم مـن الأنانيـة الـذي يعتلينـي.

هكـذا نحـن، ببـلادة نبحـث عـن أشـياء تسـحبنا لأسـفل ونـترك أشـياء يمكـن أن ترفعنـا للسـحب.. كلـما تذكـرت كلـمات جـاسر ووعـوده، كلـما شـعرت بالخسـة، ألـوم روحـي كيـف تركـت هـذا القلـب يتسـلل مـن بـين يـدي لأجـل قلـب لا يعـرف معنـى الوفـاء حتـى..

- أوعدك يا حياة إني هخليكي أسعد إنسانة في الدنيا..

هعمل كل حاجة عشان أشوف بس السعادة في عينك.

- أنا ما أستهلش كل حبك دا يا جاسر.

- ماتقوليش كدا أبدًا، إنتي أحسن بنت شافتها عيني.

أنا بحلم باليوم دا من سنين يا حياة.. إنتي الحياة اللي اتمنتها.

حاولـت.. لا أنكـر أننـي حاولـت أن أنسـى مـراد، لكـن كيـف! كيـف أتخلـص مـن كل هـذا الحـب الـذي أحاطنـي مـن كل اتجـاه، أجـد روحـي تبحـث عنـه كل دقيقـة عـلى كل برامـج التواصـل الاجتماعـي لأعـرف أخبـاره، أراقـب صحوتـه ونومـه، أتابعـه كل لحظـة.

***

بعـد مـرور عـشرة أيـام عـلى تجهيـزات حفـل خطوبتـي، التـي اسـتعد لهـا كل العائلـة.. رغـم أننـي قـررت أن يكـون حفـلًا عائليًّـا في المنـزل، لكـن اسـتعد كل أفـراد عائلتـي وأسرتي لهـذا اليـوم.

اعتـذرت أمـي عـن الحضـور، لكنـه كان مـن المتوقـع.. كنـت أحتـاج لهـا حقًـا، أحتـاج أن تعانقنـي، وتنصحنـي نصيحـة الأم التـي تمنيـت طـوال حيـاتي أن أسـمعها، حتـى لـو وبختنـي وأهانتنـي، أو حتـى تصفعنـي عـلى وجهـي، تمنيـت أن ألمس الخـوف والقلـق بعينيهـا عـليّ.. كنـت أتوقـع أن تطـير مـن السـعادة عنـد علمهـا خـبر خطبتـي، خاصـة أننـي ابنتهـا الوحيـدة، ومـن المفـترض أن تكـون بجانبـي، لكن لا لـوم عـلى قلـب قـاسٍ، اعتـدت عـدم وجودهـا وكفـى.

كان يجـب عـليَّ أن أمـارس دور العـروس بـكل طقوسـه، أبحـث عـن فسـتان في كل المحـلات والمراكـز التجاريـة، أختـار مصفـف شـعر وخبـير تجميـل، وأختـار شـبكتي، وأتابـع ترتيبـات الحفـل.

أعلـم أننـي كنـت أخـدع نفـسي قبـل أن أخـدع أي شـخص آخـر.. أتقمـص دور القويـة التـي تقـدر عـلى تجـاوز هـذا الحـب، أقنعـت نفـسي بهـذا، كذبـت عـلى روحـي وصدقـت هـذه الكذبـة.

كان يـوم خطبتـي مثـل الحلـم، الـذي مـرَّ سريعًـا، لم أشـعر بـه، كأننـي كنـت مغيبـة أو مخـدَّرة.. أرقـص مـع أقربائـي، وأحيانًـا كنـت أرقـص رقصًـا غـير عـادي، أتصـور مـع جـاسر بمنتهـى الحـب والرومانسـية، أضحـك بصـوت عـالٍ.. ظـن الجميـع أننـي في غايـة السـعادة، لكنـي كنـت أفعـل هـذا كـي أظهـر عكـس مشـاعري، كنـت لا أشـعر وقتهـا بـأي شيء.

انتهيـت مـن الحفلـة، رفضـت أن أذهـب مـع جـاسر بعـد الخطوبـة للعشـاء، كنـت مجهـدة حقًـا.. بعـد رحيـل الجميـع دخلـت إلى غرفتـي

وخلعت فستاني ونزعت فورمة شعري وألقيت نفسي على الفراش، وذهبت سريعًا في النوم، لا أعرف كم من الوقت مرَّ.. فتحت عيني بإجهاد بيّن، محاولة أن أفيق، مر ما حدث أمس اليوم أمام عيني كأنه طيف، رفعت يدي أمام عينيّ، فوجدت خاتم الخطوبة معلقًا بإصبعي.. اعتدلت في صدمة، كنت أود وقتها أن يكون حلمًا وانتهى، بكيت بكاءً شديدًا على ما فعلته أنا بنفسي وبجاسر، جلست أفكر وأفكر، لكن لا مفر، عليّ أن أستكمل ما بدأته، مشيت خطوات قليلة لا يجوز أن أعود للخلف.

مسكت هاتفي أبحث عن مراد، أبحث عن أي شيء.. عن صورة، منشور، تعليق، عن أي شيء كي أطمئن، أيقنت حينها أنني بدائرة لا يمكنني الخروج منها سريعًا.

***

حاولت أن أعود لحياتي السابقة، وأمارس كل شيء اعتدت عليه قبل ظهور مراد بحياتي، أركز بعملي الذي أهملته، فبعد تقديم طلب النقل من قسم الحوادث، انتقلت لقسم أخبار المحافظة.. كنت أعمل به تحصيل حاصل فقط، فبعد أن أخذت خبرة كبيرة في قسم الحوادث، واتسعت دائرة علاقاتي وأصبح العمل أبسط وأسهل، كل هذا أنهيته بأمر مراد.. لكن كعادتي انهزامي دائمًا يكون بطيئًا، فحاولت أن أعيد كل هذا مجددًا وأنجح في هذا القسم الجديد..

ساعدني جاسر كثيرًا في عملي، ودعمني بكل الطرق، كان يبحث لي عن منح صحفية بالخارج، ودورات تدريبية، يهديني بالكتب الخاصة بالصحافة والإعلام، وأيضًا الروايات لأنه يعلم مدى حبي للأدب.. لكن كل الذي يفعله لم يغير من مشاعري تجاهه شيئًا، كل شيء يفعله ليسعدني، كنت أحزن أكثر لأنني لا أقدر أن أشعر بهذه السعادة.

الوقت لا يمحو شيئًا، الوقت يجعلنا نتقبل كل شيء.. كانت الساعات الأولى التي قررت بها أن أبتعد عن مراد كنت بها قوية، لكن كلما مر وقت أكبر أشعر بالاشتياق والحنين.. أتذكر كل لحظة جمعتنا، أتذكر كل حديثه، أشتاق له بعنف مخيف.

***

تمر الأيام ببطء دون لون ولا طعم، تمامًا مثل سابقتها، حياة مملة ورتيبة، حتى جاسر لم يضفِ على أيامي أي بهجة، بل زاد عليَّ العبء.. أستيقظ من نومي، أرتدي ملابسي، وأتجه إلى عملي، من نفس الطريق المعتاد، بنفس أصوات الأغنيات بسيارتي، أقابل نفس الأشخاص، أشرب مشروب النسكافيه في نفس الكوب، أعود إلى بيتي، إلى غرفتي، أنغمس في العمل حتى النعاس، أستلقي على فراشي منهمكة، أمسك هاتفي وأدخل صفحة مراد على الفيس بوك أتابع يومياته، أفتح صوره، ثم يغلبني النعاس وأنام.

استيقظت على اتصال من مدير القسم في الثامنة صباحًا، يطلب منّي أن أتجه إلى المحافظة لوجود اعتصام أمام المبنى، وأنهم لن يتمكنوا من الوصول لزميلي ليذهب هو إلى هذه المأمورية.. قمت مسرعة واتجهت إلى مقر المحافظة، كان مصور الجريدة في انتظاري، وصلت إلى هناك، كان المكان مزدحمًا، أصوات عالية تندد بالمطالب، لافتات كثيرة، عربات أمن وجنود، ظللت أبحث عن المصور، حتى وجدت وجه مراد، وقفت متصلبة بمكاني، فقدت وقتها إحساسي بكل ما حولي من زحام وضوضاء، أمر غير متوقع أن نلتقي مرة أخرى، كان من المفترض ألا نلتقي مرة أخرى، كل الخطوات التي خطوتها لنسيانه محاها لقاؤه، كأنه لم يبتعد عشرين يومًا، كأنني لم أنسَ ملامحه، كأن آخر لقاء بيننا كان بالأمس.. كان من المفترض ألا نلتقي.

وقعت عيناه عليّ، نظر لي بنفس نظرة اللهفة التي اعتدت

عليهـا، فقدنـا شـعورنا بـكل صـوت وشـخص مـن حولنـا، لم تلتفـت عينـاه، وأنـا أيضًـا اسـتمررت في النظـر إليـه.. عـاد الوقـت مـن جديـد بعدمـا جـاء المصـور أمامـي، حاولـت أن أنهـي مهمتـي وأرحـل، فقـدت التركيـز، كنـت أنظـر لـه كل لحظـة، وإن غـاب أبحـث عنـه، الاشـتياق أمـر ليـس سـهلًا.

أنهيـت مهمتـي، ورحلـت ومعـي المصـور، كان مـراد ينظـر إليَّ وكأنـه يقـول لي أن أنتظـر، مشـيت ونظـرت للخلـف وجدتـه ينظـر إليّ، أخـذت سـيارتي وبجانبـي المصـور، كنـت شـاردة رغـم ثرثـرة زميـلي، عـدت إلى مقـر عمـلي، وبلحظـة دخـولي إلى مكتبـي، سـمعت صـوت رسـالته تـدق..

«ماكنتش أعرف إنك واحشاني بالشكل دا»

وأنـا أيضًـا لم أتخيـل كل هـذا الاشـتياق.. أخطـأت عندمـا تخيلـت أننـي هجرتـه.. أخـذت نفسًـا ودون تفكـير، كتبـت لـه بأبسـط الحـروف..

«واحشتني اوي يا مراد»

لم أفكـر حينهـا في جـاسر الـذي ألبـس خاتمـه في إصبعـي، كيـف أتجـاوز كل هـذا الحنـين، كنـت أخـدع عقـلي وقلبـي أننـي نسـيت مـراد، ورَّطـت نفـسي بـه وورطـت جـاسر بي..

لم يمـر لقـاؤي بمـراد مـرورًا بسـيطًا وهادئًـا، كان لا بُـد أن نعـود.. كنـت أعلـم أنـه سـيتصل بي في الليـل، انتظـرت مكالمتـه، حتـى اتصـل، اشـتقت لـه، لصوتـه، ضحكتـه، حتـى لصـوت أنفاسـه،

كنت أسمعه فقط، كنت أريد أن تمتلئ أذناي بصوته الذي حرمت منه كل هذه المدة.. عاتبني على فعلتي هذه، عاتبني على خطبتي ..

- ياترى مرتاحة معاه وبتحبيه؟

- أنا ماحبتش حد غيرك يا مراد.

- إنتي لو حبتيني ماكنتيش اخترتي إنك تبعدي.

- إنت عارف كويس أنا عملت ليه كدا.

***

بكل أنانية وقسوة قلب اخترت أن أبعد عن جاسر وأنهي علاقتي به، بكل قوة اخترت أن أسرق فرحة جاسر بعد أقل من شهر، لا أعلم لماذا فعلت هذا، ما الذي كنت أنتظر أن يحدث حينها، لا أعلم، كل ما أتذكره أنني كنت مصرة على إنهاء علاقتي بجاسر.

تركته بغدرٍ باردٍ وقلبٍ أبله، أخبرته أنني أعتز به كثيرًا لكن لا أراه حبيبًا أو زوجًا..

- إنت تستاهل حد أحسن مني.

- إيه اللي عملته يخليكي تقرري دا! أنا غلطت في إيه وأنا مش هكرره.

- إنت ماعملتش أي حاجة، أنا ماقدرتش أشوفك أكتر من قريب وأخ.

حاولت أن أهرب من النظر في عينيه، لا أتمكن من أن أرى دمعاته الحبيسة، خجلت من قذارتي وحماقتي.. تملكني مراد وسيطر على عقلي وقلبي، مثل جِنٍّ لعين يستقر بالجسد، جن جعلني لا أرى أي شيء غيره..

أنهيت قصتي مع جاسر، وبدأت رحلتي مع مراد من جديد.. الرحلة التي ستنهي حياتي وتقضي على عمري، بكامل إرادتي اخترت هذا الطريق وأنا أعلم في قراره نفسي أنه طريق لن أنجو منه.

كان من الضروري أن أنجو قبل أن أتورط به أكثر، أحببته حد الجنون، الجنون الذي يدمر صاحبه، لا أعلم ما الذي جعلني أحبه كل هذا الحب في شهورٍ قليلة، رغم أنه مليء بالعيوب، لم يكن به أي صفة واحدة تجعل امرأة تقع في حبه.. أخبرني أن زوجته تحبه بجنون، لكني كنت أعلم أنه يكذب، وأعود أقول لنفسي لمَ لا؟! فهل لا يوجد امرأة مخبولة غيري، فهناك الكثيرات مثلي، الكثيرات يحبون أشخاصًا بلا أسباب وبلا منفعة.

كان ينبغي أن أبقى عادلة، خاصة بعدما اخترت أن أكون طرفًا ثالثًا بين فردين.. كنت على يقين أن أكون أكثر ليونة في علاقتي مع مراد بعدما وافقت أن تكون هناك أخرى تشاركني به، لكن لا أنكر أن الغيرة كانت تتملك مني يومًا بعد يوم، أحيانًا كثيرة تتصل به وأنا معه، كنت أسمع صوتها وهي تتحدث معه في أي شيء، أو تطلب منه شيئًا لها أو لابنتهما، أغار عليه عندما أسمعه يضحك بعدما تمازحه.. أغار عندما يعود للمنزل ويختفي عني،

أظل طوال الليل أفكر، ماذا يفعلون الآن؟.. كنت أدخل على حسابها الشخصي على الفيس بوك.

وأطّلع على منشوراتها، وجدت صور زفافهما، وصورًا كثيرة تجمعهما سويًا، كنت أحتفظ بأي صورة أجدها، وأظل طوال الليل أنظر لهما، أدقق في ملامحها، ويدور في عقلي ألف سؤال وسؤال.

بعد خمسة وأربعين يومًا من عودتي لمراد، أخبرني أن زوجته حامل.. شعرت حينها بسقوط صخرة كبيرة على رأسي كيف؟ متى؟ لمَ؟.. لكني اكتفيت بالصمت وفي قلبي وعقلي مئات من الأسئلة، سألني عن سبب صمتي، أجبته بأنني ليس لدي أي تعليق..

– أنا كمان مصدوم، ملك لسه ماكمّلتش سنة، وماكنش عندي استعداد دلوقتي خالص.

– اللي حصل بأه يا مراد، ربنا رايد كدا.

صمتي كان يحكي كل ما يجوب بخاطري، لكن مراد كل مرة يتعمد اللامبالاة.. طبيعي أن تكون حياته معها مثل أي زوجين، يتحدثان، يتمازحان، يتنزهان، يمارسان العلاقة الحميمة، لماذا أحزن ولمَ أغار؟ واقع وأعيش فيه ولا بُد أن أتقبله.

فكرت وقتها أن فكرة زواجنا أصبحت مستحيلة، كنا نحمل هم طفل واحد فقط، فالآن أصبحا طفلين، صعب على مراد أن يتحمل هدم كل هذا، كل شيء كان يشير بأن أبتعد، إشارات

القـدر لا تفارقنـي، تلاحقـي بـكل خطـوة أخطوهـا.. لكنـي كلـما أخطـو للأمـام في علاقتـي بمـراد، تنغمـس قدمـي أكثـر وتمنعنـي مـن العـودة.

***

مـن المنطقـي أن تكـون لعلاقتنـا نهايـة، لكنـي يئسـت مـن علاقتنا، مشـاعري تحولـت إلى كتلـة مـن الحـزن واليـأس، كنـت أخـبره كل لحظـة أننـي أحبـه، أقولهـا وبهـا وجـع وأنـين، لم يمـر يـوم علينـا دون أن أتحـدث معـه في نهايـة علاقتنـا، أعاتبـه، أحـاول أن أعـرض لـه كل الألم الـذي يسـكني، كان يهـرب دائـمًا بمزاحـه، لم أكتـفِ بعـبء قلبـي فقـط، كنـت أحمـل عـلى عاتقـي زوجتـه التـي أخونهـا أنـا وهـو، أفكـر بهـا طـوال الوقـت، أضـع نفـسي مكانهـا، أتخيـل لـو زوجـي يخوننـي ويميـل لغـيري، أفكـر في ابنتـه التـي سـتعيش بنصـف أب.. لكـن سرعـان مـا أنسـى وأحقـن ضمـيري بمخـدر، لم أكـن أنانيـة ولا كنـت أفكـر في أن ينفصـلا، لكـن أنـا أيضًـا أحبـه، أضعـف مـن أن أبتعـد عنـه..

لم يكتـفِ مـراد مـن أن يـورط قلبـي فقـط، كان مصممًـا أن يـورط جسـدي بـه، في كل مـرة كنـا نلتقـي دائـمًا يحـاول أن يقبّلنـي ويـمارس معـي أي شيء حميـم، دائـمًا كنـت أرفـض وأكتفـي بعناقـه، لكـن الوقـت لم يمـر لصالحـي أبـدًا، فـكل يـوم يمـر أشـعر أننـي أحبـه بـلا هـوادة، كل يـوم أصـير أضعـف مـن قبـل، كنـت في يـده مثـل قطعـة الصلصـال يشـكِّل بـه مثلـما يريـد.

كنت أطيعه في أي شيء يريده إلا أن نصل إلى العلاقة الحميمة، كان يريد أن افعل معه كل شيء لكني كنت أرفض، يصر بحجة أنه يحبني ويريد أن يفعل كل شيء، لكني كنت أرفض لأنني على علم أن علاقتنا لن تكتمل في يوم.. أشعر بالندم بكل مرة يقبِّلني أو يعانقني، أشعر بالخسة والبخس، أكره نفسي وألوم روحي الضعيفة، لم يخطر على بالي يومًا أن أحب شخصًا وأعيش معه كل المشاعر المقيتة هذه، أيقنت أن الحب الذي طالما بحثت عنه وانتظرته لم يكن سماويًّا مثلما اعتقدت، حب جعلني أعيش أسوأ مشاعر يمكن أن يمر بها شخص.

علاقتي به لم تعد علاقة رومانسية، يسودها الحب واللحظات الجميلة، أصبحت علاقة كلها حزن وندب ودموع، صارت كل مكالماتنا بها لوم وعتاب ودموع.. ألومه على كل شعور سيء أشعر به، أطلب منه أن يجد لي حلًا أو مَخرجًا، أحيانًا أطلب منه أن يبتعد عني، يوافقني وقتها وهو يعلم أنني لن أفعلها.

أختفي عنه يومين أو ثلاثة، ويغلبني الحنين ثم أعود.. لم يلتفت لأي وجع أشعر به، في كل مرة أعانقه، كنت أحتضنه بكل ذرة حب وألم، أحتضنه وأنا أحمل دمعاتي، التي تسقط على كتفه دون أن يراها، في حين أنه يحتضنني شهوة فقط.

ذات مرة كنت في حضنه بكيت بصوت عالٍ، أبعدته عني وأنا أنهار من البكاء، كانت هذه المرة الأولى التي يرى فيها دموعي وحزني، حاول تهدئتي، لكن آلامي لا تهدأ.. ربت على كتفي، لكني سريعًا أبعدت يده بألم بالغ.

نظرت له وعيناي مليئتان بالدمعات..

– مراد بحبك، بحبك.. بس مش قادرة أتحمل كل دا.

أنا مش قادرة أحبك وأنا عارفة إن الحب دا له آخر

أنا كل يوم بموت، إنت مش حاسس بيا

– أنا حاسس، بس أنا مش عارف أعمل ايه ليكي ولنفسي.

– ابعد عني يا مراد.. اهرب، اختفي، سافر، اعمل أي حاجة ماتكلمنيش مهما حاولت أنا اني ارجعلك.. ساعدني.

لم يتحدث كثيرًا، تفهم دموعي، رحلت وتمنيت أن ينفذ لي طلبي ويبتعد عني.. مضيت ولم ألتفت لما سيخلفه المضي، أخذت إجازة أسبوع من عملي كي أستريح، كنت بحاجة أن أمنح عقلي راحة قليلًا من كل هذه الأثقال.. لم تكن هذه المرة الأولى لابتعادي عن مراد، لكنها كانت الأولى بإحساس أننا لن نعود، كان عليَّ أن أرحم قلبي، وأنقذ ما تبقى من روحي.

سافرت إلى الإسكندرية لعمتي، تركت كل شيء خلفي، عدت إلى هوايتي المفضلة قراءة الروايات التي ابتعدت عنها منذ أن عرفت مراد، قررت أن أمتنع عن مراقبته، وأحاول أن أمحيه من عقلي.

أرسل لي جاسر رسالة غير متوقعة على هاتفي، تحمل كلمات رقيقة كعادته..

– إزيك يا حياة؟ حبيت أطّمن عليكي.. لو احتجتي أي حاجة أنا جنبك.

كأنه يشعر بي وبقلبي، ليتني أملك أحقية أن أجعل قلبي يخفق بإرادتي، كنت سأحب جاسر وسأعيش معه كل مشاعر الحب، كنت سأحبه أكثر من حبه بكثير، سأفعل كل شيء كي أجعله سعيدًا فقط.. لكن القلب دائمًا يهوى الشقاء.

مرت ثلاثة أيام على فراقي لمراد، وفي اليوم الرابع، اتصل بي، أمسكت هاتفي وأنا لا أملك القدرة على عدم الرد، لا أنكر أنني تمنيت من لحظة فراقي أن يتصل بي ويخبرني أنه لا يريد أن يبتعد عني وأنه وجد حلًا، تمنيت أن يكون اتصاله لهذا السبب..

- أيوه يا مراد.

- حياة أنا عايز أشوفك دلوقتي.

- ليه؟

- لازم أتكلم معاكي في موضوع مهم.

- أنا في إسكندرية عند عمتي، ممكن تقولي دلوقتي.

- لا مش هينفع في التليفون، أنا هجيلك.

سعدت بما قاله، تأكدت أنه قادم لشيء مهم، أخبرت روحي أنه وجد الحل.. انتظرته بشغف، وكأن الوقت لم يمر أبدًا، فكرت بكل شيء، ما الذي سأخبر به أبي، هل سيوافق؟ ماذا سيفعل مراد مع زوجته؟ سينفصل عنها؟ أسئلة دون إجابات، لكن ما عليّ سوى الانتظار.

مرت ساعتان إلا ربع، اتصل بي مراد كان ينتظرني بأحد الكافيات، وجدته جالسًا يدخن السجائر، اقتربت منه باشتياق..

كنت حقًا أفتقده كل لحظة، جلست أمامه بقوة مزيفة، أتعمق في عينيه..

- وحشتيني أوي يا حياة.

صمتُّ وصمتي يقول الكثير، كنت أود أن أعانقه بقوة وأبكي، لكني تماسكت..

- خير يا مراد؟ جيت مخصوص علشان حاجة مهمة زي ما قُلت.

- باختصار علشان عندي شغل، أنا اليومين اللي فاتوا كنت بفكر، أنا مش قادر أبعد عنك،

حاولت بس في كل مرة ما بقدرش، مافيش حل غير إنك لازم تفضلي معايا،

كنت أنظر له وأنا أدعو في قلبي أن يبقيه الله حبًا للأبد، أنتظر أن يقول أنه سيتزوجني..

- انتي كل شوية تقولي إنك بالنسبة لي نزوة، ودا مش صح، وعلشان أثبتلك دا، فأنا هتجوزك.

كل أشكال السعادة ضخت بأوردتي، شعرت حينها أني أسعد مخلوق بالعالم، لم أفكر وقتها بأي شيء، لم أفكر في زوجته ولا ابنته ولا طفله القادم، حتى لم أفكر في أبي وأهلي، أجبته في تلعثم:

- تتجوزني؟ تتجوزني ازاي؟

- هنتجوز زي أي حد بيتجوز.

لكـن السـعادة لم تسـتمر قليـلًا.. ولم يـرضَ عنـي الوهـم ويرحـل، في كل مـرة كنـت أتعشـم في مـراد كان يخذلنـي بقـوة..

– أنـا مـش هينفـع أعمـل أي حاجـة دلوقتـي زي دي، علشـان هـي حامـل ومـا أقـدرش أطلقهـا دلوقتـي.

وهـي أكيـد لـو عرفـت هتطلـب الطـلاق، إحنـا هنخـلي الجـواز عُـرفي الـكام شـهر دول.

ابتسمت بسخرية..

– وهو كدا هتتجوز زي أي حد بيتجوز!

– أنـا مـش هقـدر أعمـل أي حاجـة دلوقتـي، وانتـي مـش هتقـدري تسـتني.

وأنـا جـاي بثبتلـك إنـك مـش نـزوة، ولا الـكلام الهبـل الـلي بتقوليـه.

– وهي النزوة مش ممكن تكون بالجواز العرفي برضو!

– أنـا هتجـوزك عنـد مـأذون وشـهود، ماقولتـش إننـا هنكتـب ورقتـين.

مـن المسـتحيل أن تغـيِّر نظـرة شـخص لـك، مـن المسـتحيل أن تجعلـه يـراك بحجـم أكـبر وهـو بالأسـاس يـراك نقطـة.. الـذي اختـار أن يكـون معـك في الظـلام لا يمكـن أن يفكـر في أن يـراك في النـور أبـدًا.

لكنـي اخـترت أن أكمـل مـا بدأتـه، اخـترت أن أسـير نحـو الأسـوأ، وأن أمـضي في الظـلام والوحـل.

لم يكـن هنـاك أي حديـثٍ يقـال ليلطـف هـذا الجـو الخانـق، صمـت مميـت، عقـلي مشـوش تائـه بـين أفـكاره المشـتتة، كنـت أتمنـى لـو أدخـل عقـل مـراد، لأطّلـع عـلى كل أفـكاره، كان مـن الـضروري أن يكـون هـذا متاحًـا لي كـي أقـدر أن أقـرر كل شيء.

وصـل أسـفل منـزل عمتـي، نظـرت لـه قبـل أن أودعـه، مسـك يـدي ووضـع عليهـا قلبـه وأخـبرني أنـه يحبنـي ولا يقـدر عـلى فراقـي، ترجـاني أن أوافـق عـلى طلبـه كـي نبقـى معًـا للأبـد، ألقيـت عليـه السـلام ورحلـت.

في اليـوم التـالي، جهـزت حقيبـة السـفر، للعـودة إلى القاهـرة، تعمد مـراد ألا يهاتفنـي، كأنـه يريـد أن آخـذ هـذا القـرار دون أي ضغـط، كان قـرارًا صعبًـا وضخـمًا، أصعـب قـرار فكـرت فيـه بحيـاتي.. كيـف يصبـح شـخص قـوي أكثـر ضعفًـا مـن بعوضـة، أحببـت مـراد إلى هـذا الحـد، كنـت أضعـف مـن أن أقـول لـه «لا» في أي شيء، لا أتخيـل يومًـا أن أصبـح هـذا الشـخص، كنـت عندمـا أسـتمع أو أشـاهد قصـص الـزواج العـرفي، أتعجـب مـن سـذاجة الفتـاة، كنـت أتحامـل عليهـا، كيـف تفعـل هـذا الـشيء المشـين وتدمـر نفسـها وأهلهـا، لكنـي الآن أصبحـت ضمـن قائمـة هـؤلاء السـاذجات، وأصبحـت أرأف بهـن وأعطيهـن أعذارهـن لفعلتهـن هـذه.

بعـد يومـين، اتصلـت عـلى مـراد وأخبرتـه أننـي موافقـة، شـعرت بالسـعادة مـن صوتـه، وطلـب منـي أن نلتقـي كـي نرتـب كل شيء.

التقينا، أخبرني أنه يمتلك شقة في إحدى المناطق السكنية الجديدة، وسيقوم بتجهيزها لأنها فارغة من أي أثاث، وطلب أن أقوم باختيار كل شيء، كنت لا أشعر بفرحة أي عروس في تجهيزات شقتها، ولا كنت أتمنى أن يكون زواجي بهذا الشكل.

كنا نتحدث مثل أي اثنين يحضّران لزواجهما، نتحدث في تفاصيل الشقة، والأماكن التي سوف نتجه إليها للشراء، أخبرني أن كل شيء مؤقت، وسوف نقوم بتغيير كل شيء بعد إعلان الزواج.

لا أنكر أن مراد حاول كثيرًا أن يطَمئِن قلبي ويدخل السكينة لروحي، كان سعيدًا للغاية وكأنه عريس لأول مرة، تحمَّل حزني ومزاجي السيء وتوتري، حاول كثيرًا أن يجعلني أفرح وأعيش في حالة العروس التي تستعد لزواجها من حبيبها.

أنا أيضًا حاولت أن أهدأ، وكلما وجدت نفسي ترفض زودت جرعة المخدر أكثر، أصبحت محاميًا للشيطان لأدافع عن نفسي أمام ضميري، أقول إنه لا بُد أن أفرح وأنسى كل شيء سلبي يؤرقني.

الحياة لم تعدنا بالسعادة التي حلمنا بها دومًا، نحن دائمًا نتطلع إلى كل ما هو بعيد، الحياة أجبرتنا أن نعيشها كما هي، أن نتحمل كل أعبائها، ونتذوق الحزن والألم كأنهما بدون مرارة.. أجبرتنا أن نحاول سرقة لحظات السعادة ونركض، أجبرتنا أن نصبح أكثر أنانية، نسرق السعادة حتى من آخرين، كان لا بُد من أن أصبح أكثر أنانية كي أحصل على قدر كبير من السعادة.

بكل قوة ألقيت كل شيء خلفي، وضربت بكل شيء عرض الحائط، نزلت مع مراد نختار الأثاث، لم يكن أثاثًا مناسبًا لزوجين، بل أغراضًا لمعيشة فقط.. اشترينا غرفة نوم، وصالون لغرفة المعيشة، ومنضدة صغيرة بأربعة كراسي للطعام، وأجهزة كهربائية متواضعة، وبعض الأغراض المنزلية، وأدوات المطبخ، وعدد من اللوحات والتحف.

ذهبت معه لمعاينة الشقة، كانت شقةً صغيرةً متواضعة، بتجهيز متواضع.. أخبرني أنه قام بشرائها لتكون عالمه الخاص، إذا قرر أن ينفصل عن كل شيء سوف يتجه إليها مباشرة.

تقدمت بطلب إجازة جديدة لمدة عشرة أيام بدون مرتب، وتوليت أنا مهام نقل الأغراض وتحضير الشقة، كنت متواجدة مع العمال وحدي، بحكم انشغال مراد في عمله.. كانت أفكاري عن زواجي مختلفة عن كل هذا، شقتي التي يصممها مهندس ديكور على أعلى طراز حديث، وبجانبي أعز أصدقائي وأختي وأهلي، تدق الزغاريد والأغاني، لكني كنت بمفردي، أحمل الأغراض الثقيلة بكلتا يديّ، أسحب الكراسي وأضعها جانبًا، ثم أجلس أستريح وأنا بداخلي بكاء مكبوت، أحاول أن أخمده، ثم أقوم كي أكمل، حتى يحل الليل عليَّ وأضطر إلى المغادرة.

ظللت أربعة أيام وأنا على هذا الوضع، أستيقظ من نومي وأذهب إلى شقة الزوجية أكمل التجهيزات بمفردي، فقط أكتفي بأغاني فيروز لتؤنس وحدتي، التي كانت دائمًا رفيقتي الوحيدة طوال رحلتي، كنت تكتفي أنت باتصال تليفوني لتشرف على مهامي.

في آخر يوم من تحضير شقة الزوجية، علَّقت بغرفة المعيشة لوحة فنية اخترتها أنا، كانت بها ظهر طفل يحمل في كفه نصف قلب، والنصف الآخر خلفه على الأرض، وقتها رفض مراد أن نأخذها، لكني صممت، سألني عن سبب إصراري، أخبرته أنني أشعر دائمًا بأنني طفل يعيش بنصف قلب، دائمًا اشعر أنني أعيش بنصف كل شيء، بنصف عمر، نصف سعادة، نصف أمل، وبنصف قلب، وقتها أمسكت يده وضغطت عليها بقوة وطلبت منه، ألا يخذلني..

انتهيت من الشقة، وها هي في أتم الاستعداد لاستقبال العروسين، لكن كان ينقصني شراء أغراض خاصة بي، طلبت من مراد أن يسمح لي بشراء فستان بسيط لونه أبيض وأن أذهب لمصفف الشعر، وافق دون تردد.

حدد يوم الزواج في يوم إجازته الأسبوعية، كي يخبر زوجته بأن هناك ضغطًا في العمل ولن يستطيع أن يأخذ إجازته وأنا أخبرت أبي أن صديقتي مي مريضة بالمستشفى ولا بُد أن أبقي معها هذه الليلة، رغم أنني قررت ألا أخبرها أي شيء عن زواجي هذا.

في ليلة الأربعاء، أخذت حمامي الدافئ، وذهبت إلى النوم استعدادًا لهذا اليوم الصعب، هاتفني قبل أن أذهب إلى النوم، كان يضحك ويمزح ومستعدًا لهذا اليوم بكل بهجة، عكسي تمامًا، لم تغفُ عيناي لحظة واحدة، تملكني الخوف من كل شيء، لكن الخوف من القادم كان هو الشعور المتصدر.

حاولت أن أغفو، أعتقد أنني نعست عند مطلع الفجر.. انتفضت بعد كابوس لم يتعدَّ عشر ثوانٍ، وجدت ثعبانًا يلتفت حول عنقي بقوة كدت أن أختنق، نهضت مسرعة، ألتقط أنفاسي، نظرت في ساعة هاتفي لأجدها التاسعة صباحًا، تحركت من على فراشي لآخذ حمامي المعتاد، وأجهز حقيبتي.

جهزت حقيبتي ووضعت بها الأغراض التي سأحتاجها، ومضيت، أدرت سيارتي واتجهت إلى شقة الزوجية، كان مراد نائمًا، وكعادتي لم أتصل به صباحًا، أنتظر اتصاله هو.

صعدت الشقة، كان الوقت مبكرًا، وخمس ساعات باقية على موعد الزواج، أدرت أغاني فيروز وتمددت على الأريكة أنظر إلى عقارب الساعة التي لم تسر.. نعست لا أعرف كم من الوقت مر، ولكني استيقظت على رنة هاتفي في الساعة الثانية ظهرًا، كان مراد هو المتصل.

- إيه يا حبيبتي صباح الخير.

- صباح الخير إيه؟ أنا صاحية من بدري.

- صوتك لسه صاحي.

- أنا صحيت الساعة ٩ وجيت الشقة، تقريبًا نمت من كتر الزهق.

- إنتي جيتي الشقة بدري كدا ليه؟ انتي مستعجلة بقى؟

لم أتحمل مزاحه، كنت أكثر توترًا من أي وقت مضى، غضبت وأخبرته أنه يجب أن يخفف من مزاحه هذا، طلب مني أن أهدأ، وأن أكون جاهزةً على الساعة الخامسة.

رغـم أن الوقـت كان يسـير ببطـئ لكنـه مـرَّ، نزلـت في السـاعة الثالثـة أبحـث عـن مركـز تجميـل قريـب مـن المنـزل.. ارتديـت فسـتانًا بسـيطًا جـدًّا لونـه أبيـض، ووضعـت لنفسي لمسـات بسـيطة مـن الماكيـاج وأسـدلت شـعري عـلى كتفـي وظهـري، مـع قطـرات مـن العطـر، اتصـل بي مـراد ليخـبرني أنـه أسـفل الشـقة ومعـه المـأذون وأصدقـاؤه الذيـن سـوف يشـهدون عـلى الـزواج، ارتجـف قلبـي لكنـي حاولـت أن أبقـى صامـدة.

دق جـرس البـاب، فتحـت مسرعـةً، وجـدت مـراد، كان يرتـدي بدلـة سـوداء دون ربـاط عنـق، صافحتـه عـلى اسـتحياء، ثـم دخـل مـن بعـده رجـل في العقـد الخامـس مـن العمـر يرتـدي سروالًا وقميصًـا، وليـس بجلبـاب مثلـما تخيلـت، وألقـى السـلام عـليّ، ثـم دخـل أيضًـا اثنـان مـن أصدقـاء مـراد المقربـين، لا أعرفهـما لكنـي كنـت أراهمـا معـه في الصـور.

جلسـنا جميعًـا، عينـاي ورأسي كانـوا لأسـفل، كيـف أرفـع رأسي أمـام أحـد؟ كيـف أتجـرأ أن أنظـر إلى عيـون كل المتواجديـن، ظلـت رأسي منحنيـة لأسـفل، كنت أتمنـى وقتهـا أن تنشـق الأرض وتبتلعني، أسـمع كل الأفـكار التـي تـدور بـرأس كل شـخص موجـود، كنـت أعلـم بأنـه لا أحـد سـوف يشـعر أننـي فعلـت كل هـذا مـن أجـل الحـب الـذي اسـتوطن قلبـي، لا أحـد سـوف يقـدّر أننـي فعلـت كل هـذا لأننـي أضعـف مـن أن أرفـض وأبتعـد عـن مـراد، أسـمع كل الأحاديـث التـي تـدور في رأس كل شـخص، أعلـم أنهـم ينظـرون إليَّ نظـرة سـوداء، أطلـع عـلى أفكارهـم ونظرتهـم ورأيهـم لكنـي لا

أستطيع أن أطلع على أفكار مراد كي تنير لي العتمة التي أعيش فيها من يوم التقيت به.

ردد هذا الرجل الذي لا أجد له أي مسمى، عبارات دينية وطلب مني أنا ومراد أن نجلس جانبه، ثم ألقى عبارات وطلب مني أن أرددها..

- زوجتُكَ نفسي على سنة الله ورسوله..

رد مراد وهو مبتسمٌ:

- قبلت زواجك.

ثم مضيت على ورقتي الزواج وكتبت رقم بطاقتي، وبعدي فعل مراد، ثم قام صديقا مراد بالإمضاء على العقود أيضًا، وصافحاه بالعناق والقُبلات، وقدما لنا المباركة، ودعهما مراد وأغلق الباب.. وبقيت أنا وهو تحت سقف واحد.

اقترب مراد مني بابتسامة صافية، سحب كلتا يديّ وقبَّلهما، ثم التفت يداه حول خصري واحتضنني بقوة، التفت يداي أيضًا حول عنقه أضمه إليّ، شعرت وقتها أنه زوجي أمام الله، حتى وإن كان هذا الزواج ينقصه كافة الشروط، لكني وكلت الله على هذه الزيجة، شعرت أنه منذ هذه اللحظة أصبحت علاقتي بمراد حلالًا، مباح بها كل شيء.

همس في أذني، «مبروك علينا»، نظرت له واختصرت كل الحديث الذي يدور بعقلي وقلبي واكتفيت بقول أعظم الكلمات.

- أنا بحبك أوي يا مراد، ما أقدرش أعيش من غيرك.

ربت على وجهي، ووضع قُبلة على جبهتي، وأخبرني أنه أعد لي مفاجأة، وسحب يدي لخارج المنزل، سألته إلى أين سنذهب، أخبرني أنني سوف أعلم بعد قليل.

جلست جانبه بالسيارة بشعور مختلف عن السابق، كنت هذا اليوم أشعر أنني زوجته، كم تمنيت أن أصبح «مدام مراد الزغبي» أجلس جانبه وأسير معه وأنا زوجته.. كنت في حضنه طوال الطريق، أضع رأسي على صدره، مشاعر مختلطة داخلي، لكني لا أنكر أنني كنت أشعر بالسعادة، تمنيت ألا يمر الوقت أبدًا، أن أبقى في حضنه، كنت لا أشعر وقتها بأي زمانٍ ولا مكان، انفصلت عن الواقع، حتى وقفت السيارة أمام الكازينو الذي التقينا به يوم عيد ميلادي، استقبلنا العاملون في المكان بحفاوة، صعدنا بالدور العلوي، جلسنا إلى طاولة مزينة بالورود والشموع، علمت حينها أن مراد أعد كل هذا مسبقًا من أجلي، كعادته يعرف جيدًا كيف يدخل الفرح إلى قلبي بأبسط الأمور..

تناولنا العشاء سويًا، مع أصوات الموسيقى الهادئة، وبعد قليل جاء العامل حاملًا قالبًا من التورتة عليها عروس بفستان أبيض، ثم وضع مراد يديه في جيبه، وأخرج علبة صغيرة بها خاتم شبيه لدبلة الزواج وقدَّمه لي، وبعد ذلك سحب يدي وطلب مني أن أسمح له بالرقص معه على نغمات موسيقى هادئة، كدت أن أطير من السعادة، حاول مراد أن يعوض قلبي كل ما فقده من فرحة، وأنا أيضًا حاولت أن أعيش كل أجواء

الفـرح، وأسرق كل لحظـة سـعيدة، كل الـذي أفكـر فيـه وقتهـا أننـي أصبحـت زوجـة مـراد الزغبـي.. وقـد تـم.

***

في صبـاح اليـوم الأول مـن زواجـي، فتحـت عينـيّ وكأننـي كنـت في حلـم، اسـتجمعت أفـكاري لأرى غرفـة غـير غرفتـي وفراشًـا غـير فـراشي، حتـى أدركـت أننـي في واقـع حقيقـي وليـس حلـمًا أو سرابًـا، نظـرت جانبـي كـي أجـد مـراد نائـمًا، لكنـي لم أجـده، نهضـت لأبحث عنـه وأنـا أنـادي عليـه، ولم يكـن لـه أي أثـر في الشـقة، توجهـت إلى الغرفـة أبحـث عـن هاتفـي لأتصـل بـه، فوجـدت منـه رسـالة..

« صبـاح الخـير يـا أجمـل عروسـة، ماحبتـش أقلقـك، طلبـوني في المكتـب، لمـا تصحـي كلمينـي.. صباحيـة مباركـة».

كنـت أعلـم أنـه يكـذب، كان هـذا يـوم إجازتـه، لكنـه اختـار أن يتركنـي أول يـوم في زواجنـا كـي يذهـب لزوجتـه خوفًـا منهـا، شـعرت وقتهـا شـعورًا مقيتًـا.. كأننـي ألقيـت نفسـي بأحضـان ثـري، فعـل مـا فعلـه بي ومـضي، تـاركًا لي قليـلًا مـن المـال، وزاد هـذا الشـعور سـوءًا عندمـا وقعـت عينـاي عـلى قطـرات دمـاء فرجـي مطبوعـة عـلى الفـراش، مـضى مـراد دون أن يعطينـي ثمـن هتـك عذريتـي، التـي غامـرت أنـا بهـا وشرف عائلتـي بأكملهـا اللذيـن لا يضاهيهـما أي ثمـن.

تركـت لـه مـا بقـي مـن أغـلى مـا تملـك فتـاة شرقيـة عتيقـة مثـلي، تركتـه هديـة منـي لـه كـي يعلـم أننـي فرطـت في أعز مـا أملـك مـن أجله،

نهضت آخذ حمامي كي أغسل شعور البغض لنفسي، ثم لملمت أغراضي وخرجت دون أن أهاتفه.

كانت الساعة الواحدة ظهرًا، عندما وصلت منزلي، دخلت غرفتي وأغلقت الباب هربًا من أن أواجه أحدًا من أهلي وأنا في هذه الحالة، بعد قليل دخلت عليَّ زوجة أبي..

- حياة إنتي جيتي إمتى؟ شُفت عربيتك تحت.

- جيت من شوية يا طنط.

- حمدالله على سلامتك، صاحبتك عاملة إيه دلوقتي؟

- اااه كويسة الحمدلله، أحسن.

- إنتي مالك، لونك مخطوف كدا؟

تلعثم لساني، ولم اجب إلا بعد أن نظرت لوجهي في مرآتي، وجدت وجهي حقًا شاحب اللون على غير عادته، ثم عدت للرد عليها:

- ماكنش فيه نوم طول الليل، هنام شوية وهكون كويسة.

الأم هي التي ربت وسهرت وداوت وعلمت الفضيلة والقيم، وليست التي حملت ووضعت، تركتني أمي في عمر الزهور، تركتني دون أن تترك ذكريات لها تملأ ذاكرتي، تركتني لزوجة أب، تزرع وتجني ثمار ما فعلت.. أعلم أن أبي حينها أصر أن يأخذني من أمي، لكنها استسلمت، شدت حزام القوة على قلبها ورحلت، الوقت كان كفيلًا أن يضعف حبال الحب، كلما مر الوقت، كلما زادت هي جفاءً واعتادت غيابي.. لا يجوز

أن أمحو كل ما فعلته زوجة أبي معي طوال هذه المدة، لا بُد أن أكون منصفة وعادلة معها، أحسنَتْ معاملتي، واتقت الله في معاملتها معي، لم أشعر لحظة أنها تفرق بيني وبين أشقائي، أمي حقًا، أقول لها أمي بكل صدق.. لكني لا أقدر أن أمحو احتياجي لأمي، مهما حاول جميع البشر أن يقوموا بدور أمي لا يستطيع أحد أن يملأ مكان الأم.. أحتاجها، وكل لحظة تمر بحياتي أحتاجها أكثر.

مر الوقت ولم يتصل مراد أو يرسل رسالة، تركته دون أن أزعجه، فتحت موقع التواصل الاجتماعي فيس بوك من الحاسب الآلي، كي أعلم عندما يظهر مراد نشط على الدردشة، انتظرت طويلًا وأنا أنظر إلى شاشة الحاسب الآلي وأيضًا على هاتفي.

بعد حوالي خمس ساعات وجدته يتصل بي، أجبته في الحال..

- لسه فاكر تكلمني.

- آسف ياحبيبتي، انشغلت جدًّا.

- انشغلت ولا كنت في البيت.

- بيت إيه يا عبيطة انتي؟ أنا في المكتب من الصبح.

كان معه حق، أنا حقًا مختلة عقليًّا، أنا حقًّا ساذجة ومجنونة، كنت أصدق كل أكاذيبه البلهاء، أقنع روحي أنه صادق وأمين.. عقلي يرفض كل أكاذيبه، كنت أعلم أنه يكذب حينها، وأعلم أنه في المنزل، نبرة صوته وطريقة حديثه يؤكدان أنه كان في منزله يحدثني من أي غرفة بعيدة عن زوجته، لكني تعمدت أن أتجاهل كل أكاذيبه.

كان من الصعب أن تمر أول ليلة بعد زواجنا وأنا وحدي وهو بين أحضان أخرى، كانت هذه المرة الأولى التي أشعر بها أنني وحيدة بهذا الشكل، مر الليل ببطء، وأنا أنظر إلى النجوم المرصعة بعتمة الليل الكاتمة، أضع جبيني على زجاج شرفتي بكل حزن وقهر، أنتظر النهار بفارغ الصبر، أنتظر اتصاله.

ذهبت في النوم وأنا أحتضن هاتفي بكلتا يديَّ، وبعد ساعات من الانتظار عطف مراد على قلبي واتصل بي، كانت الساعة الحادية عشرة صباحًا، نهضت من نومي مسرعة لأجيبه، أخبرني أنه سوف يأتي في الساعة الخامسة في عش الزوجية، وطلب مني أن أنتظره هناك، عندها وافقت دون أن أعاتبه حتى ذهبت إلى بيتنا وانتظرته، جاء متأخرًا بساعة كعادته.

سمعته يفتح باب الشقة، ركضت نحوه كطفل صغير، ألقيت نفسي في حضنه، أضمه إليَّ بقوة، أخبره أنني اشتقت له كثيرًا.. عاتبته على غيابه عني ليلة أمس، ربت على كتفي وقبَّل رأسي.

لو يعلم مراد إلى أي مدى أحببته، لكان اختار أن يبقى بجانبي طوال حياته، لو كان الحب شيئًا ماديًا يلمس أو يرى، كنت أتمكن أن أعبّر عن مدى حبي له.. أحيانًا كنت أشعر برغبة جامحة أن أمنع مراد من أي شيء يأخذه مني، أرغب في أن أمنعه من العمل ومن زوجته وابنته وأهله وأقربائه، كي يبقى معي أنا فقط، أرغب بشدة ألا يشاركني فيه أي شيء.

***

مـر أول أسـبوع عـلى زواجنـا سريعًـا، لم أشـعر بـه، نتقابـل يوميًّـا لمـدة سـاعتين أو سـاعة واحـدة حسـب ظـروف عملـه ومواعيـد زوجتـه، كنـا نلتقـي فقـط لهـدف يجمعنـا بالفـراش.

أحـزن عـلى نفـسي كل يـوم بعـد أن يفـرغ طاقتـه الجنسـية ويمضي، يكتفـي بطبـع قُبلـة عـلى خـدي أو جبينـي، يتركنـي وحـدي بـين جـدران غرفـة لا تحتوينـي، أبكـي كل مـرة دون علمـه، أظـل باكيـةً حتـى تجـف دموعـي، ثـم أنهـض كـي أغسـل شـعور الخسـة، وأعـود لمنـزل أبي بـكل عفـة.

يتصـل بي قبـل أن يصـل إلى بيتـه، ليتحـدث معـي عـن تفاصيـل كل ليلـة قضاهـا معـي، يضحـك ويمـزح وهـو يصـف كل شيء حـدث بيننـا في هـذا اليـوم مسـتخدمًا أسـوأ المصطلحـات، أحيانًـا كنـت أكتفـي بالصمـت وأخـرى أوبخـه وأنفعـل وتـارة أخـرى أبادلـه الضحـكات والمـزاح.

لم يتحـدث مـراد معـي في تأجيـل الإنجـاب، لكنـه بـكل مـرة يعـاشرني كان يسـتخدم الواقـي الذكـري، لم يطلـب منـى في مـرة أن أقـوم أنـا باسـتخدام وسـيلة لمنـع الحمـل، كأن مـراد لا يثـق في، يخـشي أن أفاجئـه بحمـلي وأضعـه أمـام الأمـر الواقـع، اختـار أن يعتمـد عـلى نفسـه في هـذه المهمـة.

انتهـت إجـازتي وعـدت إلى العمـل، كان لا بُـد أن أعـود لحيـاتي وعمـلي الـذي أهملتـه بشـكل واضـح.. في أول يـوم لي في العمـل بعـد عـودتي، شـعرت أن هنـاك شـيئًا تغـير بي، ابتسـامتي التـي كانـت

دائمًا على وجهي اختفت تمامًا، وأصبحت مجرد ابتسامات مزيفة غير صادقة، حتى علاقاتي مع زملاء العمل ضعفت وأصبحتُ أجلس وحدي دائمًا، دائمًا أشرد وكأنني أحمل همومًا لا حصر لها، وضعت كل تركيزي في مراد، أظل أراقبه على كل مواقع التواصل الاجتماعي، أراقب زوجته وأحلل كل المنشورات الخاصة بها على صفحتها.

مرت الأيام، وعلاقتي بمراد أصبحت علاقة عكسية، كلما مر يوم كلما ابتعد مراد عني وأهملني، صارت علاقتنا أضعف مما كانت عليه، كنت أراه مرة واحدة في الأسبوع تتلخص مدتها في ساعتين أو ثلاث ساعات فقط، حتى قلت مكالماته ورسائله، أتصل به يقفل الاتصال ويكتفي بإرسال رسالة يعتذر بها عن الرد لانشغاله.

يتصل بي أثناء عودته إلى منزله فجرًا، مكالمة لا تتعدى خمس دقائق، حديث بارد جاف ليس له أي معنى، لم يهتم أن يسأل عن حالي وعن يومي كيف مر، أو عن أي شيء أشعر به.

كنت أصمت وأنا بداخلي كم هائل من الأسئلة، وأصمت وأنا أحمل ألمًا كبيرًا يخترق قلبي.

حاولت أن أخلق له الأعذار والحجج كي أتحمل وأصمد أكثر، دائمًا أقنع قلبي وعقلي أنه مضغوط كثيرًا ويجب عليَّ أن أقف جانبه، تحمَّلت مرات كثيرة كان من المفترض أن أثور وأرفض.

تطـور إهمالـه لي أكثـر، حتـى إنـه أصبـح يخـبرني أنـه سـوف يـأتي، ويجعلنـي أنتظـره في بيتنـا، ثـم يعتـذر عـن المجـيء برسـالة بـاردة.. أظـل في انتظـاره لأكثـر مـن أربـع أو خمـس سـاعات، ليكتفـي هـو برسـالة قصـيرة تحمـل ألـف معنـى.

« آسـف يـا حبيبتـي لسـه مخلـص شـغل وروحـت البيـت، هنـام لأني تعبـان جـدًّا».

ذات يـوم أثنـاء عـودتي لمنـزلي بعـد يـوم عمـل طويـل، وقفـت في أحـد كمائـن المـرور، طالبنـي عسـكري المـرور برخصـة السـيارة ورخصتـي الخاصـة للكشـف عنهـما، عـلى الفـور أحضرتهـما لـه، لكنـه عنفنـي بسـبب لـون الزجـاج الخلفـي الأسـود لأنـه غـير مثبـت في الرخصـة، جـاء ضابـط المـرور الشـاب، حتـى تصاعـد الحـوار بيننـا وحـدث شـجار بينـي وبينـه، وقـام هـذا الضابـط بسـبي وكاد أن يتحـرش بي ليضربنـي.. قـررت أن أتصـل بمـراد كـي يتدخـل ويحـل هـذه المشـكلة ويأخـذ حقـي، لكنـه كالعـادة لم يجِـب عـليّ، أرسـلت لـه رسـالة..

«رد أرجوك أنا في مشكلة»

بعـد دقائـق كثـيرة اتصـل بي، أخبرتـه بـما حـدث، وطلبـت منـه أن يتدخـل كـي أرحـل.

- أنا المفروض أعمل إيه يعني؟

- هـو أنـا الـلي هقولـك تعمـل إيـه! بقولـك شـتمني وكان عايـز يضربنـي، كلـم أي حـد عشـان هعمـل محـضر حـالًا بالـلي حصـل.

- يا سلام! وأقولهم انتي مين بقى؟؟

- صح يا مراد.. هتقولهم إيه، عموما خلاص أنا هتصرف.

كنت أتخيل أنه حمايتي وظهري الذي سوف يحميني من أي شيء، الزواج ليس فقط إمضاء على ورق، الزواج هو الأمان والسكينة.. دائمًا مراد يخذل توقعاتي، توقعت أنه سيثار عندما يعلم أن هناك رجلًا تعدى على زوجته، سوف يغضب ويُجن ويخطط لقتله وأنا أترجاه ألا يفعل، تخيلات وأحلام وأوهام.

الغريب أنني عندما كنت أتشاجر مع الضابط، شعرت أن هناك قوة خلفي تمدني بالإصرار والتحدي، أخبرت الضابط أنه سيندم على ما فعله، وأنني سوف آخذ حقي منه كاملًا، قلت كل هذا بتحدٍّ كبير لأنني زوجة لضابط قوي ذي منصب هام.

ضحكت عندما أغلق مراد الهاتف وتركني أتصرف أنا وأحل مشاكلي وحدي، أدركت حينها أن مراد لا يحبني وأن كل أحاديثه السابقة مجرد شعارات فقط.. وضعت جرحي وصدمتي جانبًا كي أحل هذه المشكلة، اتصلت بوالدي وأخبرته بكل ما حدث، غضب كثيرًا وثار، وأخبرني أنه قادمٌ لي، وسوف يتصل بابن عمه لواء الشرطة.

لم يهدأ أبي لحظة عندما رأى هذا الضابط، كاد أن يقتله، لم يصدق كيف يتجرأ ويتعدى عليّ، ثم أخذني أبي ومعه ابن عمه وتوجهنا إلى قسم الشرطة، تدخل الكثيرون لحل الخلاف بيننا، ولم يرضَ أبي بأي حلٍّ غير محضر التعدي، لكن بعد وقتٍ كبيرٍ من

الإقناع وافق على التصالح بعد أن قام الضابط بالاعتذار لي وله.

العمود الفقري الحقيقي هو الأب، مهما صار ومهما حدث يبقى الأب هو الصرح الكبير الذي لا تزحزحه ظروف أو تبدله أيام، أيقنت أن الأب لا يُعوَّض أبدًا وأنني أخطأت عندما تخيلت حتى لو للحظة أنه يمكن أن أستند على أحدٍ غيره، فلا يوجد أحد على وجه الكرة الأرضية يمكنه أن يكون بديلًا للأب أو يملأ خانته.

بعد مرور يوم كامل في هذه المشكلة، عدت إلى منزلي في الثانية عشرة منتصف الليل، لم يتصل بي مراد نهائيًا ليطمئن عليّ، حاولت أن أهدأ وأنام لكنني كنت أغلي كبركان غاضب، أمسك هاتفي بين الحين والآخر لأتصل به وأصرخ في وجهه وأوبخه لكنني أتراجع.

في الواحدة بعد منتصف الليل رن هاتفي وكان المتصل هو مراد، التقطت أنفاسي، وأجبته بكل ثبات..

- أيوه يا مراد.

- إيه يابنتي مش تكلميني تطمنيني.

- معلش.

- معلش! مالك في إيه؟

- هو أنا ينفع أشوفك بكرة ضروري.

وافق مراد أن ألتقي به اليوم التالي، وأنا أتكتم عن كل ما يدور في ذهني، كنت أشعر حينها أنني يجب أن أنهي هذه

العلاقة دون أن آخُذ في الاعتبار كل العواقب والنتائج التي ستترتب على قراري هذا، كل ما فكرت به وقتها أنه لا يحبني يومًا وأنه سيتركني آجلًا أم عاجلًا، اخترت أن أرحل قبل أن يتركني هو، وأظفر بما تبقي من كرامتي، فهذا أخف وطأة من الغدر.

انتظرته في شقته بعد عودتي من عملي لأكثر من ثلاث ساعات، حتى سمعت صوت مفتاحه يدور في كالون باب الشقة، لم أتحرك من مكاني، دخل ثم ألقى على التحية وقبلني بجبيني وجلس أمامي، ظل صامتًا قليلًا ثم سألني ماذا بي، أجبته بردٍّ سريع ومختصر..

– في إني مش عايزة أكمل، عايزاك تطلقني.

انفجر ضاحكًا وكأنني قُلت مُزحة، يضرب كف على كف وهو يضحك، كنت أنظر له في صمت ساخط كي ينتهي من سخريته منّي..

– نطلق ايه يابنتي، هو احنا لسه اتجوزنا علشان نتطلق؟ دا إحنا لسه ماكملناش شهر.

نهضت من مكاني وأنا أرد عليه بمنتهى العنف، وسألته متعجبة هل ستكون حياتي القادمة بهذا الشكل، سألني أي شكل الذي أقصده..

– هو انت حاسس بجد إن اللي بتعمله معايا دا طبيعي.

– إيوه إيه اللي أنا بعمله، فهميني.

انفجرت فيه وأنا أبكي، لمته على جفائه معي وقسوته، عاتبته

عـلى تركـه لي بالأيـام وقلـة اهتمامـه، عنفتـه بعـد مشـكلة ضابـط المـرور وتخليـه عنـي.

دافـع عـن نفسـه بمنتهـى الـذكاء، حـاول أن يقنعنـي أنـه يجـب ألا يفعـل أي شيء مـع الضابـط وألا يتدخـل حفاظًـا عـليّ وعـلى سـمعتي، ولـو كان تدخـل بـأي شـكل كان الجميـع سـيتحدث علينـا وسـوف تخلـق القصـص والروايـات وعـليّ أنـا تحديـدًا..

أقسـم لي إنـه كان يغـلي كالـبركان بسـبب هـذا الضابـط، واشـتعل أكثـر لأنـه شـعر بالعجـز القـوي الـذي منعـه مـن أن يأخـذ حقـي، وأخـبرني أن حزنـه وغضبـه الداخـلي جعلـه يصمـت ويفضّـل ألا يتصـل بي كـي يهـدأ.

ظللـت أنظـر لـه وهـو يدافـع عـن نفسـه بشـتى الحيـل، أوهمـت قلبـي أنـه صـادق وأننـي ظلمتـه، اقتنعـت بـكل أكاذيبـه، واسـتكمل الدفـاع عـن نفسـه في أسـباب إهمالـه لي وتغـيره بعـد زواجنـا.

– أنـا مـا اتغيرتـش ولا حاجـة، بـس أنـا خـلاص بقيـت متطمـن إنـك معايـا.

عاتبنـي عـلى عـدم قـدرتي تحمـل طبيعـة عملـه، وأننـي أصبحـت أردد عبـارات زوجتـه التـي دائـمًا تلومـه عـلى أشـياء ليس لـه أي دخل بهـا وأنـه مُجـبر عـلى هـذه الوظيفـة ومُجـبر عـلى عـدد سـاعات العمـل.

قطعـت حديثـه ولاحقتـه لأدافـع عـن نفـسي وأرفـض مقارنتـي بزوجتـه، كنـت أخشـى أن يـراني مثـل زوجتـه وأن أصبـح أنـا أيضًـا مصـدرًا مزعجًـا لـه.. تراجعـت عـن كل مـا أعـاني منـه وأخبرتـه

أنني أحبه وأريد فقط أن أشعر أنه جانبي، أقسمت له إنني أعلم بظروف عمله وأقدر تعبه وأنني لا أريد أن أضغط عليه، لكن كل ما أريده ألا يهملني، نهض من مكانه واقترب مني ليحتضني وهو يعدني أنه سوف يفعل.

أعلم بكل سذاجتي مثلما يعلمها هو جيدًا، في كل مرة يضع لي مخدر الصبر في الكأس، أشربه حتى الثمالة.. لا أعلم هل هو بارع في الكذب أم أنا أكثر سذاجة!!

***

قررت أن أجدد علاقتنا التي انطفأ بريقها بعد زواجنا، وقررت أن أستغل عيد ميلاده في هذا، رسمت خطة بسيطة لهذا اليوم، ونويت أن أجعل أول عيد ميلاد له معي لا يُنسى.

أخذت يومًا إجازة من عملي، واستيقظت في موعدي، ثم أرسلت له رسالة قصيرة..

- صباح الخير، أنا محضرالك مفاجأة النهارده، هستناك.

اتصل بي سريعًا:

- لا مادام في مفاجآت وحاجات حلوة لازم آجي.

- أنا أخدت النهارده أجازة، هروح على هناك دلوقتي وانت خلص شغلك وتعالى.

- خلاص اتفقنا، ٦ هكون عندك.

كنت اتفقت مع أحد محلات الحلويات بتجهيز قالب من التورتة صممته خصيصًا لمراد، مررت عليهم وأخذت القالب

وبعض الحلويات والشموع، ثم اتجهت لماركت كبير واشتريت أغراض مختلفة، اشتريت هديته مسبقًا، كانت عبارة عن ميدالية من الفضة بها قلب كبير داخله قلب صغير، شعرت حينها أن القلب الكبير هو قلبي الذي يحب قلبًا صغيرًا كقلب مراد، كتعبير عن حبي الكبير له مقابل حُبه الصغير لي.

وصلت المنزل باكرًا، وبدأت أحضّر لليوم، فبدأت بتعليق الزينة بجميع أنحاء الشقة، وعلقت البلالين الحمراء أيضًا، وضعت شموعًا في كل مكان، ورسمت على السرير قلبًا أحمر بالورود، ثم دخلت المطبخ لأبدأ في الطهي له لأول مرة.

أنهيت كل هذه المهام قبل موعد وصوله بنصف ساعة، غيرت ملابسي، وارتديت فستانًا قصيرًا أحمر اللون، ثم وضعت الطعام على منضدة بترتيب فندقي، وأخيرًا عطرت المنزل وأشعلت الشموع.

دقت الساعة السادسة ولم يأتِ، كنت أنظر عليه من الشرفة بين الحين والآخر، تأخر ساعة عن موعده، ساعتين، فقررت أن أتصل به.

اتصلت به في الساعة الثامنة، وجدت هاتفه مغلقًا، حلت على الصدمة، استمر في الاتصال كشخص مجنون، أغلق وأعيد الاتصال، ثم أغلق وأعيد وأنا أنظر عليه من الشرفة لعله يأتي قمت برفع الطعام ووضعته في صحون الطهي كي أعيد تسخينه مرة أخرى عندما يأتي..

دقت الساعة العاشرة، رن هاتفي وكان المتصل أبي، ارتبكت قليلًا وتذكرت أنني تأخرت ولم اخبرهم بأي حجة للتأخير، اتجهت على الشرفة وتحدثت معه..

- أنا خلصت شغل متأخر ونزلت مع صحابي نعمل شوبنج يا بابا ماتقلقش.

- إنتي ماقولتيش ليه طيب قلقنا عليكي.

- معلش يا بابا ماكنتش مرتبة.

أغلقت مع أبي وشعرت بالوقت الطويل الذي انتظرت فيه، عاودت الاتصال مرة أخيرة، ووجدت هاتفه مازال مغلقًا.. الساعة العاشرة ولم يظهر مراد، فلا بُد أن أرحل، أطفأت الشموع التي ملأت كل أركان الشقة، ووضعت الطعام وقالب التورتة في الثلاجة، وفرقت البلالين وأنزلت الزينة، أنهيت كل شيء أعددته من أجل شخص لا يستحق أي شيء.

أخذت سيارتي وتوجهت إلى منزلي، بكيت على نفسي، لعنت ضعفي وقلة حيلتي.. لا أجد مبررًا أو سببًا يجعلني أغفر له كل ما يفعله بي وبقلبي، لعنت قلبي المخبول المُصر أن أعرف السبب الذي منعه من عدم المجيء، بأي كذبة سيخدِّر عقلي بها.

عدت إلى المنزل وأغلقت غرفتي على وانغمرت داخل وسادتي أصرخ بقلبها كي لا يسمعني أحد، شعرت وقتها بمرارة ما حل بها، شعرت بالمعنى الحقيقي للإهانة، كنت أبكي على نفسي فقط وليس عليه.

أمسكت هاتفي أبحث عنه أو عن أي شيء كي أجد سببًا يريح قلبي، فتحت صفحته على الفيس بوك ولم أجد أي شيء جديد منذ الليلة الماضية، دخلت على صفحة زوجته لأجد صورة لهما قبل ساعة تهنئه بعيد ميلاده، وأسفل الصورة كلمات حب « كل سنة وانت معايا كل سنة وانت حبيبي».. كانت تضع فوق الصورة موقعهما بأحد الفنادق الشهيرة، جلست على فراشي وأنا أبتسم ابتسامة سخرية من سذاجتي وغبائي، كيف تخيلت أنه ممكن أن يفضّلني على زوجته أم أولاده، أنا مَن؟ أنا مَن بحياته؟ ما حجمي؟ أنا لا أساوي أي شيء بالنسبة له، أنا لا شيء.

ضحى بي في لحظة من أجلها، من أين جاءت ثقتي في أنه سيحبني أكثر منها ؟، ليس مجرد ألم، لكنه أنين يخترق كل أنسجة جسدي، يذوب بأوردتي، يلتهم جدران قلبي.. كنت أصمد كل ليلة وأنا أعرف أنه نائم بجوارها، أظل أفكر ماذا يفعلان في هذه اللحظة، أجن عندما أتخيل أنه يعانقها، أو يعاشرها، أو يبتسم في وجهها.. أنا لم أكن أنانية أو بهذا السوء، لكني كنت أعلم مقداري في حياته، كنت أعلم أنها تمتلك أكثر، أعلم أنها الجزء الأهم والأساسي، هي لها فيه أكثر مني، لكني أحبه وأتألم كل هذا الألم، هي تعلم أنه سيعود لها بالنهاية لكن أنا لا، أنا ليس لي فيه أي شيء، أغار عليه وأحسدها كثيرًا، أحسد عينيها اللتين تريانه كل لحظة، ينام بجوارها، يلمسها، يجلس معها لتناول الغداء، يظهر معها بكل مكان، تتنزه معه، تنجب منه.

لا يـدرك مـراد كل مـا أعيشـه، لا يـدرك حجـم الألم الـذي يسـكنني، كيـف أخـبره بـكل هـذا، لا يعلـم كـم ليلـة قضيتهـا وأنـا أشـاهد صورهمـا معًـا حتـى أغفـو، كـم مـرة اشـتعلت بي النـيران حينـما يخـبرني أنـه معهـا، أسـوأ شـعور بالحيـاة عندمـا نشـعر أننـا نحـب مـن لا يجـب أن نحبـه، اخـترت بـدلًا مـن ألم واحـد اخـترت ألمين، أحببـت رجـلًا.. لا أحببـت نصـف رجـل، لا لا أحببـت بضـع رجـل، فالنصـف كان كثـيرًا عـليّ، أنـا لم أتعـدَّ حقوقـي، وبضـع رجـل حـق أي أنثـى تحـب رجـلًا متزوجًـا.

انسـحبت.. كان عـلى الانسـحاب بعدمـا علمـت أنهـا تحتفـل معـه بعيـد ميـلاده، بصـدر رحـب تقبلـت اختيـاره أن يبقـى معهـا هـي وليـس أنـا، بهـدوء تفهمـت، وأغلقـت أنـوار غرفتـي وهاتفـي، واحتضنـت روحـي وأغلقـت عينـيّ كـي أغفـو ودموعـي تسـيل عـلى وسـادتي بصمـت مميـت.

هـدني البـكاء ونعسـت، نهضـت عـلى أصـوات أذان الفجـر بعـد الكابـوس الـذي يرافقنـي دائـمًا.

تحركـت مـن مـكاني ونويـت الصـلاة، توضـأت وأنـا أغسـل عينـيّ مـن بقايـا كحـلي الممـزوج بدمعـاتي عـلى وجهـي، وقفـت وأنـا محتفظة بقـوتي، لكـن ضعفـت بـين أيـادي الخالـق، كيـف أدعـي القـوة وهـو أقـرب إلى مـن حبـل الوريـد.. بكيـت بحسـرة، انغمـرت في البـكاء وأنـا أضـع يـدي عـلى صـدري وأتوسـل إلى الله دون صـوت بـألم مـبرح، توسـلت إليـه أن ينزعـه مـن بـين أضلعـي، أبكـي دون حديـث، الله يعلـم، يشـعر، يفهـم دون أن نحكـي، أن نـشرح، دون أن

نوصف.. سجدت وأنا أدفع كل آلامي وهمومي إلى ملكوت الله كي يستجيب ويربت على قلبي بيده الرحيمة، أخبرت ربي أنني أخطأت وأريد أن أكفِّر عن ذنبي، سألته أن يتوب عني ويغفر لي ويعيد لي صوابي، يصلح لي نفسي ويطيب قلبي.

أنهيت صلاتي، واستلقيت على أريكة بغرفتي، وأنا أضع هاتفي على صدري لعله يتصل بي، حتى غلبني النعاس، مر الوقت وأنا لا أشعر به بعدما ابتلعت جرعة من المنوم.. رن هاتفي بين يدي أكثر من مرة، استيقظت ببطء ووجدت صديقتي مها تتصل بي، أجبتها بإعياء شديد..

- إيه يا حياة انتي فين اتاخرتي ليه؟

- هي الساعة كام دلوقتي؟

- الساعة ١٢، ومستر هشام سأل عليكي كذا مرة.

- أنا مش هقدر آجي النهارده يا مها، قوليله أي حاجة.

تملك اليأس مني بشكل كبير، سئمت الحياة كثيرًا، كنت مثل شخص معلق بخيط بالٍ، لا التمسك به يجعله ينجو ولا الوقوع يجدي نفعًا.. ضائعة أنا، لا أعرف ما الذي أفعله، طريق وسلكته، العودة منه لا تفيد بأي شيء بعدما قطعت نصف الطريق.

عدت لأستكمل نومي على فراشي وأنا أتأرجح كأنني ثملت، ذهبت في النوم مرة أخرى، وكأنني أريد أن أهرب من كل شيء إلى النوم، رفضت واقعي المؤلم الذي أعيش فيه،

كنت أسمع صوت هاتفي يرن وأنا أتجاهله كي أستمر في نومي، لكنه انتصر عليَّ بعد اتصال أكثر من خمس مرات فقررت أن أرد على المتصل.

كان مراد هو المتصل، اعتدلت من نومي وأجبته بهدوء شديد وروح باردة أو قد تكون استسلمت ..

- إنتي شكلك نايمة؟

- آه نايمة.

- ماروحتيش الشغل ليه؟

- تعبانة شوية.

- مالك سلامتك؟

- مافيش، شوية أرق.

- مممممم طيب، أنا عايز أعتذرلك على اللي حصل امبارح.

صدقيني أنا ادبست وماعرفتش أمشي ولا أكلمك.

كنت صامتة أستمع إليه فقط وهو يقدم مبررات كثيرة، قد يكون صادقًا وقد لا، لكني مللت من كل مبرراته التي لم تطيب خاطري لحظة، أخبرني أنها فاجأته بإعداد حفلة يحضرها عائلته وأقربائهم، واضطر أن يبقى معهم.. وعدني أن يحتفل معي اليوم بعد الانتهاء من عمله.

لم املك حينها أي شيء غير أن أقبل كل شيء، كنت أضعف من أقول لا أو أرفض وأعترض.

أعـددت نفـسي قبـل موعـد ذهابـه إلى بيتنـا، واتجهـت إلى هنـاك قبلـه، كنـت حريصـةً دائـمًا أن أتواجـد قبلـه خاشـيًا أن يذهـب قبـلي ولم يجـدني ويرحـل.. غـيرت ملابـسي، وارتديـت قميـص نـوم، وتعطـرت، ووضعـت لمسـات مـن أدوات التجميـل عـلى وجهـي، وانتظرتـه في غرفـة النـوم.

لم أشـعل الشـموع، فـكل شيء ينطفـئ لـن يـضيء بنفـس بريقـه السـابق، كنـت أعلـم أنـه لا يهمـه كل مـا أفعلـه من أشـياء رومانسـية، لا قالـب حلـوى ولا شـموع ولا مزيـكا وأضـواء خافتـة، كل الـذي يهمـه هـو فقـط الفـراش..

سـمعت صـوت فتحـه للبـاب، ثـم توجـه مبـاشرة إلى غرفـة النـوم.. لم يسـألني كيـف حـالي ولم يعتـذر لي عـن ليلـة أمـس رغـم أن ملامـح وجهـي تخـبره بـكل شيء، لكنـه اكتفـى أن يسـعد نفسـه فقـط ويـرضي رغباتـه الحيوانيـة.. سـلمته نفـسي بجسـد بـارد مثـل الثلـج، لكنـه لم يبـالِ بـكل مـا أشـعر بـه حتـى ينهـي مـا بـدأه..

أخـذ حمامـه وطلـب منـي أن أعـد لـه طعامًـا أو أطلـب مـن الخـارج، سـخنت لـه طعـام ليلـة أمـس، تنـاول الغـداء وهـو يثرثـر معـي بكلـمات قليلـة، ثـم وضـع قُبلـة عـلى جبينـي ورحـل عـلى وعـد منـه بلقائنـا اليـوم التـالي..

***

بقدر ما نعطي حبًّا بقدر ما نتألم، هكذا تعلمت في مشوار حياتي الصغير الذي لم يكن يليق أبدًا بأنثى في زهرة شبابها، عانيت طوال حياتي من الوحدة، كل الأشخاص الذين أحببتهم جرحوني، حتى أمي التي عشقتها، أول حب في حياتي، آلمتني وجرحتني.. كل هؤلاء الذين كان وجودهم حياة، رحلوا.. كانوا أكثر أنانية، فضلوا حياتهم وأشخاصًا آخرين عليّ، ابتعدوا عني وهم يعلمون أن سعادتي بوجودهم جواري، رحلوا وهم يعلمون أن روحي تعود في جسدي كلما رأتهم عيني، كل الذين أحببتهم دمروني.

الوقت لم يمر أبدًا، مجرد جملة خادعة تصبر وجع المتألمين، الوقت يجعلنا نتعايش مع الألم فقط، لكنه لا يمحي شيئًا ولا يطيب جرحًا، سنجد أن كل جرح باقٍ داخلنا، يزيح الجرح الجديد آخر قديم ليسكن جانبه، قلوبنا مليئة بالجروح كأعقاب السجائر، بقاياها موجودة ولو مرت سنوات، نعتاد فقط ونتناسى ولا شيء يُنسى..

اعتدت على غياب أمي، واعتدت أيضًا على الاشتياق، اكتفيت بصورتها الموجودة ببرواز بجانب فراشي وهي تحملني وأنا في عمر الثالثة وكنت أضحك ضحكة عريضة ببراءة الأطفال، أنظر لهذه الصورة دومًا لكنها لا تبرد قلبي لحظة.

ترسل لي الرسائل القصيرة من خلال تطبيقات الهاتف المحمول، كانت تكتفي بالتعليقات على الصور الجديدة لي ووضع علامات الإعجاب على المنشورات الخاصة بي على مواقع

التواصل الاجتماعي، أنا أيضًا كنت أفعل هذا، أدخل على صورها وأتأمل كل شيء بها، كنت أتعجب من ابتسامتها التي لا تفارق وجهها وكأن لم تكن هناك قطعة من قلبها بعيدة عنها، أتأمل كيف تعيش حياتها بالطول والعرض بين سفر وسهر ورحلات وأعمال دون أن تنتبه لأمري.

***

اختفى مراد منذ آخر لقاء بيننا، اختفى دون سابق إنذار أو إبداء أي أسباب.. مر يوم، يومان، ثلاثة، وهو متغيب دون شرح أسباب، كنت أتصل به في اليوم أكثر من سبعين اتصال، ورسائلي تجاوزت المائة رسالة، ورغم هذا الإلحاح فإنه لا يجيب بكل عند وقوة قلب.. كنت أعلم أنه بخير بسبب ظهوره على مواقع التواصل الاجتماعي الدائم، أحيانًا كنت أرسل له رسائل أترجاه كي يجيب عليّ، وأحيانًا أرسل له رسائل استعطاف ولوم على كل ما يفعله بي، وأخرى رسائل توبيخ وإهانة كي أثير غضبه.. كان أحيانًا كثيرة يكون متاحًا على دردشة الفيس بوك ولا يجيب على رسائلي، وأحيانًا يقوم بفتح رسائلي ولا يجيب أيضًا. لا أفهم شيئًا، وكنت لا أريد أن أفهم، تقبلت أوضاع كثيرة منذ أن تورطت فيه، إلا أنني لا أتقبل إنهاء علاقتنا بهذا الشكل المهين، كنت مثل شخص يحتضر ببطء، أنتظر كل لحظة كلمة النهاية التي سيكتبها هو بيده.

أهملت كل شيء من حولي وكل الأشياء التي أحبها وكنت أمارسها دومًا، وهجرت كل أصدقائي وأقربائي، حتى جلسات

أسرتي ابتعدت عنها، عقلي طوال الوقت شارد في وادٍ آخر ، كان أي شخص يتحدث معي يلاحظ هذا.. تبدلت وتغيرت وتغير كل شيء، حتى أهملت عملي الذي سعيت إليه بكل قوتي، كياني الذي صممت أن أخلقه، ومكانتي التي عافرت أن أجدها على أرض صلبة.. لا أعرف ما الذي حدث لي، وجعلني بهذا الشكل!؟ كأنه عمل أسود أو سحر ملعون.. دخلت حياتي يا مراد ودمرت كل شيء بها.

لم أمل من الاتصالات والرسائل، كنت أرى أنه من حقي أن أفهم فقط، قررت أن أذهب له مقر عمله، لم يكن هناك وسيلة أخرى كي أراه غير هذه، اتجهت إلى مديرية الأمن قبل ذهابي إلى عملي، كنت أعلم عواقب فعلتي هذه لكنني لا أبالي.

صعدت إلى مكتبه وأنا أرتعش من المواجهة، قابلني العسكري الخاص به، وسألني هل أريد مقابلة مراد بك، أجبته بنعم، بعد لحظات قليلة خرج العسكري وسمح لي بالدخول.

فتحت باب مكتب مراد وضربات قلبي يكاد أن يسمعها المجمع بأكمله، بمجرد دخولي المكتب وجدته واقفًا بجوار الباب على وجهه مشاعر الغضب، أغلق هو الباب مسرعًا، ثم مسك ذراعي بعنف وسألني بصوت جاحد:

- إنتي ايه اللي جابك هنا؟ إنتي اتجننتي؟

- أنا جيت عشان أفهم انت فين وليه بتعمل كدا.

كنت أتحدث إليه بصوت مخنوق بالبكاء، قلبي مشتت، أريد

أن أوبخه وأهينه كي تهدأ ناري وفي نفس الوقت أخشى من رحيله، استمر في إهانتي بكل عنف وغضب، حتى طرق الباب ضابط زميله فجأة، انتفض مراد وأشار لي أن أجلس، حتى دخل زميله ونظر إليَّ نظرة شك، ثم أخذ من مراد أوراقًا وخرج.

التفت إليَّ مراد واستكمل إهانته لي:

– أنا مش هسمحلك أبدًا تعمليلي شوشرة في شغلي.

– قولي لو انت مكاني كنت هتعمل ايه؟ قلقت عليك أكتر من أي حاجة.

حاولت بشتى الطرق أن أجعله يهدأ كي أفهم أي شيء، طلب مني أن أرحل ونستكمل حديثنا في بيتنا..

– مش هتيجي يا مراد.. أنا عارفة.

– هاجي يا حياة، بس امشي دلوقتي من فضلك..

رحلت بعدما وعدني بالمجيء، تمنيت أن يصدق هذه المرة.. أخذت سيارتي واتجهت إلى شقته، كنت وقتها في حالة لا تسمح لي أن أذهب إلى عملي، شعرت أنني أريد أن أنفجر بالبكاء والصراخ.

وصلت البيت، وألقيت نفسي على الأريكة وانهرت بحالة هستيرية، كنت أبكي على الحال الذي وصلت إليه، ما هذا الضياع الذي حل بي؟ ظللت طوال وقت انتظاره وأنا أحضر كل ما أريد أن أخبره بي، كنت قد قررت أن أخبره بكل ما أشعر به، بكل ما أصابني من ألم وجرح، قررت أن أطلب منه أن يطلقني وينتهي كل شيء.

في الساعة السادسة والنصف جاء مراد وصدق في وعده، كنت جالسة على أريكة أمام باب الشقة، دخل مراد وجلس على كرسي أمامي، وعاتبني على ذهابي له مقر عمله.

كنت أنظر له بعمق، نظرات قوية تملؤها الحسرة والندم، نهضت من مكاني وانفجرت بالبكاء ..

- إنت جيت بس عشان تحاسبني ازاي آجيلك شغلك؟

إنت عمرك فكرت فيا؟ عمرك فكرت أنا حاسة بإيه؟

وانا عمري ما جيت أقولك أنا فيا إيه.

أخبرته بكل شيء أشعر به، وكل ما فعله بي، كانت الدموع تنزل على وجهي مثل حمم كثيرة، أخبرته أن حلمي الوحيد الذي أتخيله دائمًا أن استيقظ من النوم وأجد أن كل ما حدث مجرد كابوس مزعج وانتهى، كان ينظر لي فقط دون أن يتحدث لكني لا أظن وقتها أنه شعر بالذنب ..

- أنا مابقتش عايزة حاجة، ولا مستنية أي حاجة ممكن تحصل. .أنا عايزاك تطلقني وكل واحد يروح لحاله.

نهض من مكانه مسرعًا..

- إيه اللي بتقوليه دا، وإيه اللي حصل لكل دا يعني..

كل الموضوع اني عندي مشاكل كبيرة في البيت والشغل، وكنت محتاج أفضل لوحدي كام يوم بس.

حاول أن يبرر فعلته الأخيرة، كعادته يحترف الخروج من أي موقف، حاول إقناعي أنه مضطرب نفسيًّا وأنه يمر بفترة

صعبـة، عاتبنـي عـلى عـدم وقـوفي جانبـه في هـذه الظروف،انفعلـت عليـه وأخبرتـه أننـي لسـت قارئـة الفنجـان أو سـاحرة كـي أعلـم كل مـا يحـدث لـه

اقـترب منـي وحـاول احتضـاني وأنـا مغمـورة في البـكاء، في كل مـرة كنـت أود أن أبقيـه بعيـدًا عنـي، لكنـي أجـد روحـي مازالـت ضعيفـة أمامـه.

***

لم يكن أبدًا نورًا يضيء عتمتي، لقد زاد عتمتي سوادًا وأغلق بصيص الأمل الذي كانت تمدني بضوء خفيف يبقيني على قيد الحياة، كل الأيام السابقة كنت أعيش بها على أمل، لكن منذ ما عرفته وأنا كل شيء انتهى داخلي، تلاشى كل شيء ممكن أن أحيا لأجله.

كنت دائمًا أشاهد أفلامًا عن الزوجة الثانية وأقرأ رواياتٍ عن هذه القصص، لكني كنت لا أشعر بألم البطلة التي تعاني طوال القصة، كنت ألومها على قبولها من الأساس هذا الوضع المشين.. لكني لست فقط زوجة ثانية، أنا زوجة سرية، أنا أجمع كل أشكال الإهانة.

كنت أتواجد بكل الحفلات والمناسبات الاجتماعية لتغطيتها، وكان يحضرها هو أيضًا، كنت أسلم عليه كشخص غريب، بكامل الرسميات، يلقبني ب «أستاذة» وأنا ألقبه ب «مراد بك»، كنت أظل أنظر إليه طوال وقت المناسبة، أجلس بعيدة عنه كالغرباء..

كنت أتمنى أن أخبر الجميع أنه زوجي، أتخيل لو علم كل الحضور بأنني زوجته، أجلس جواره وأتحدث إليه، آخذ معه صورة أمام كل الحاضرين، لكني توهمت أنني أستحق كل هذا، كنت في نظره أقل من أن أحظى بهذه المكانة الرفيعة وأكون زوجة مراد بك.

الأيام تمر سريعًا وكأنها لا تريد أن تبقينا طويلًا على قد

الحياة، نلاحقها كأنها قطار يمضي مسرعًا، لكني كنت أشعر أنني أنتظر بمحطة واحدة، ثابتة بموقعي لا أتحرك كي ألحق القطار، كل شيء يمر ويتغير ويتحرك وأنا ثابتة في مكاني، أحبه وأتألم وأبقى بمكاني.

بعد موقف اختفائه الأخير، غفرت له كعادتي وعدت له زوجة سرية أو عشيقة يأتي لها كلما اشتاق للفراش الذي يجمعهما، اكتفيت بالصمت، وخنقت كل صوت يسكن صدري حتى لا أكون مملة ورتيبة..

كعادته يختفي دون سابق إنذار، كنت أتصل به كثيرًا يغلق الخط ويرسل لي رسالة قصيرة يخبرني أنه في اجتماع، أنتظر أن يتصل بي بعد الانتهاء، لكنه لم يفعل، مر يوم وثاني يوم وهو يكتفي بإرسال رسائل قصيرة فقط، حتى إنه يجيب على رسائلي مُتأخرًا جدًا، ويُجيب في كل مرة بمبرر مختلف..

«أنا مشغول دلوقتي - معايا المدير هكلمك تاني - أنا ف البيت - أنا سايق وجنبي أخويا..»

أربعة أيام على هذا الحال غير المفهوم، كنت أشعر أنه يكذب في كل مبرراته لكني كنت أنتظر وأنا على يقين أنني سأعرف الحقيقة..

بعد هذه المدة وجدت اتصالًا منه في منتصف الليل، أجبت مسرعة وأنا غاضبة على كل ما فعله، كان يضحك ويمزح محاولة منه إخفاء فعلته، اعتذر لي كثيرًا وأخبرني أنه ليس بيده

شيء لكن العمل هو وحده من يتحكم به وفي وقته.. رغم أنني كنت أحرّ من الجمر لكني ابتلعت غضبي رأفةً به بعد أن توسل إليَّ ألا أعكر مزاجه.

طلب مني أن أتواجد غدًا في شقة الزوجية لنتقابل..

في اليوم التالي، بعد أن أنهيت عملي اتجهت إلى بيته كي أنتظره، رتبت المنزل ونظفته ثم أخذت حمامًا ووضعت قليل من مستحضرات التجميل حتى أمحو ملامح إجهادي وتعبي، ثم جلست على الأريكة أنتظره، أمسكت بهاتفي أتصفح آخر الأخبار على الفيس بوك، حتى سحبني عقلي إلى صفحة زوجته التي دومًا أراقبها.

كانت هي دائمًا تنشر كل شيء يخصها على الفيس بوك، كنت أعلم حزنها وفرحها وتحركاتها أيضًا من خلاله، كانت دائمًا حزينة ووحيدة، أقرأ منشوراتها وأنا داخلي يقين أنها مظلومة حقًا معه، لكني أفرح أكثر بكلماتها الحزينة التي تؤكد لي أنهما بعيدان، وأحزن لو رأيت صورة تجمعهما أو منشورًا تعبر به عن حبها له ، كنت أشعر بما تشعر به، أشعر بوحدتها وألمها، أعلم أنها تعرفه جيدًا وتعرف أنه كاذب ومخادع، كنت أعلم جيدًا أنها سجينة تعيش معه فقط بين أربعة جدران..

لكني هذه المرة لم أجد ما يسعدني، وجدت مجموعة من الصور لهما في الغردقة، نشرتها في منتصف الليل وكتبت على الصور «أجمل يومين يا حبيبي، ربنا يخليك لينا « انتفضت من مكاني وضخت الدماء في عروقي، ضغطت على التعليقات كي

أفهم أكثر، ووجدت صديقة لها تسألها متي عدتم؟ لترد عليها، عدنا ليلة أمس.

شعرت بالاختناق الحقيقي، كل هذا الكذب الذي عشت فيه، كيف غفلت عن كل هذا! شعرت بأنني أكرهه، كانت هذه المرة الأولى التي أشعر بها بمشاعر البغض له، اتصلت به دون أن أرتب كلماتي، اعتراني الغضب وتملك مني، أجابني سريعًا:

– أنا داخل ع البيت اهو يا حبيبتي.

لم أشعر بأي شيء حينها، انفجرت كالبركان، صحت بصوت يُحيي حيًّا بأكمله.

– أنا مش عايزة أشوف وشك دا تاني أبدًا، أنا بقيت بكرهك يا كذاب.

– إيه يا بنتي انتي مجنونة ولّا إيه.

– أيوة مجنونة، مجنونه عشان عرفت واحد زيك.. انت إيه شيطان معجون بمَية كدب، تضحك عليا وتقولي إنك مشغول وانت كنت مسافر مع الهانم.

لم يتحمل هو كثيرا، وكشر عن أنيابه، وظهر لي وجه الحقيقي الذي لا يعرف معني الرحمة، قطع حديثي بمنتهي القوة، ليرد على بصوت مليئ بالحقد والقسوة..

– طب اسمعي بقى، أيوة أنا كنت معاها، وماتجبيش سيرتها على لسانك، انتي فاكرة نفسك مين عشان تتكلمي معايا بالطريقة دي.

وصلة من التوبيخ والإهانات، كنت في حالة من الصدمة، لم أتوقع منه كل هذا الحديث، غاب عن عقلي كل ردود الفعل، فأغلقت المكالمة في وجهه، ولملمت أشيائي من البيت وخرجت مسرعة، كان هو يتصل بي مثل المجنون، وأنا لا أبالي.. ركبت سيارتي وعند تحركي وجدته قادمًا بسيارته، قدت السيارة مسرعة كي لا يستطيع ملاحقتي لكنه قطع عليَّ الطريق.

نزل من سيارته وعلي وجهه ملامح الغضب، فتح باب سيارتي ومسك يدي وسحبني بقوة إلى سيارته، حاولت أن أمنعه وأصيح بوجهه كي يبتعد عني، استمر في توبيخي بصوت مرتفع، وأنا أرد له كل إهانته، كنت لا أرى أي شيء من حولي، لا أرى مارة ولا أسمع أي شيء، رغم أن جميع الناس المتواجدين في هذا المكان كانوا يشاهدون كل هذا، لكنه لم يراعِ أي شيء.

ركبت معه سيارته بعد أن لاحظت أخيرًا أن كل المارة تشاهد كأنه فيلم سينمائي، جلست على الكرسي الخلفي صامتة، وهو مازال مستمرًا في الصياح والتوبيخ، كنت أبكي في صمت مميت، دمعات تسقط دون أي إزعاج.. اتجه للبيت، وصعدنا سويًّا، كان ينوي أن يستكمل وصلة التوبيخ بشكل أكبر، لكني لم أعطه فرصة، صرخت بوجهه وأنا أبكي، أخبرته بأنني أكرهه من كل قلبي، أخبرته أنني أريد أن أتخلص منه ومن وجوده في حياتي، كان يرد هو أيضًا ويقسم لي إنه نادم على علاقته به، وأنه يكرهني أكثر مما أتخيل، لم تؤلمني كل هذه الإهانات بقدر ما آلمني كلامه هذا، نظرت له بعمق وهو يخبرني أنني ماضٍ

أسود ويتمنى أن ينتهي منه، كنت أشعر أنني لا أعرفه، كل شيء به تغير، وجهه، ملامحه، صوته، لا أعرف من هذا الشخص الذي أضعت عمري معه..؟

لم أعلم حينها ماذا أفعل غير أنني لا بُد من أن أنتصر لكرامتي وأنتفض لأيام عمري التي ضاعت هباء، أخبرته أنني سأحقق له كل شيء يتمناه، توجهت إلى غرفة النوم وفتحت درج الدولاب وسحبت ورقة زواجنا العرفية، ووقفت أمامه بكل قوة وأنا أخبره أن كل شيء انتهى، مزقت الورقة التي ربطتنا شهورًا، مزقتها إلى آلاف القطع الصغيرة، ثم خلعت خاتم زواجه من إصبعي وألقيته بقوة على الأرض، كان ينظر إليَّ بتعجب شديد، رد فعل لم يكن يتوقعه.. مسحت دمعاتي التي تتساقط بهدوء، وأخبرته بأننا انتهينا، فتحت باب الشقة وتوجهت سيرًا على قدميّ إلى سيارتي، كنت أبكي بكاء شديدًا وأنا لا أرى أي شيء من حولي، حتى وصلت إلى سيارتي، أغلقت بابها على وانغمرت في البكاء.

***

كنت أعلم جيدًا حقوقها عليه وأؤمن بها، أعلم أنه من الطبيعي أن يذهبا سويًّا في أي مكان، ومن حقها أن يهتم بها وأن يوفر لها ساعات من وقته، لكنه لا يعرف هو أنني أيضًا لي حقوق، اختنقت من كثرة شعور التهميش في كل شيء، طلبت منه أكثر من مرة أن نذهب سويًّا مكان خارج القاهرة يومين أو حتى يومًا، لكنه لم يهتم.. كان عليَّ أن أثور بعد أن أجد في كل

مـرة أننـي لا شيء سـوى نـزوة خُلقـت لرغباتـه وشـهواته فقـط، كان لـدي حقـوق كثـيرة حتـى وإن كنـت زوجـة سريـة.

عـدت إلى منـزلي وأنـا أشـعر أن رائحـة الخيبـة تفـوح مـن قلبـي وعقـلي، فتحـت بـاب الشـقة، وجـدت أبي جالسًـا بصالـة الاسـتقبال، حاولـت أن أهـرب مـن عينيـه، ألقيت عليـه التحيـة دون النظـر بوجهه ومضيـت.. أوقفنـي هـو وطلـب منـي أن أجلـس معـه، أخـذت نفسًـا عميقًـا وكتمـت كل الأنـين الـذي يسـكن صـدري، دردش معـي وبـدأ يسـألني عـن أحـوالي وأحـوال الصحافـة، حاولـت أن أهـرب مـن النظـر بعينـه، لكنـه سـألني مـاذا بي، أجبتـه بأنـه لا شيء سـوى إجهـاد العمـل، تحـرك مـن الكـرسي الـذي يجلـس عليـه وجلـس جـواري، لمـس بيـده كتفـي وربـت عليـه، ثـم أخـبرني أنـه يعلـم أنـه مقـصر في حقـي كثـيرًا، لكنـه يحبنـي كثـيرًا، كنـت أحتـاج فقـط حضنًـا، قطعـت حديثـه وبكيـت بحرقـة، وألقيـت جسـدي المنهـك بـين ذراعيـه، أعلـم أنـه لا يوجـد مـكان في العـالم أأمـن مـن حضـن الأب، هـو الأمـان الوحيـد والـدفء والطمأنينـة، شـعرت بمنتهـى الأسـف والنـدم تجـاه أبي، شـعرت بمنتهـى الوقاحـة كلـما ضمنـي أكثـر إليـه، حـاول تهدئتـي متسـائلًا مـا الـذي أصابنـي، كنـت أتمنـى أن أقـص عليـه مـا حـدث بي، أتخيـل لـو أخبرتـه أننـي وضعـت شرفـه في الـتراب مـع رجـل خدعنـي وتلاعـب بمشـاعري، وأطلـب منـه أن يغفـر لي ويعفـو عنـي ويحتـوي كل آلامـي، ويأخـذ لي حقـي منـه، لكـن مـرارة فعلتـي لا تسـاعد عـلى أي غفـران، وأبي رجـل شرقـي، الـشرف لديـه هـو كنـزه الأعظـم الـذي يحيـا ويمـوت لأجلـه.

اكتفيت أن أتنفس بين أحضانه محاولة مني أن ألقي بعض همومي وأستريح، أخبرته أنني بخير لكني أحتاجه جواري.. تشبثت بذراعيه وأنا أحتضنه، كطفل صغير خائف.

ذهبت إلى غرفتي وأنا أستعيد كل لحظات الحزن التي ستسكنني، مضيت وأنا لا أعبأ لما سيخلفه المضي، لم أفكر في أي شيء غير أنه قد حان وقت الرحيل، لم يكن هناك أي سبب يجعلني أنتظر في هذه العلاقة البائسة، مع كل يوم يمر أتأكد من عدم حبه لي، أتأكد أنني مجرد نزوة عابرة، زواجه مني كان وسيلة كي يأخذ غرضه من جسدي ويرضي شهواته.

كنت أحتاج وقتًا كي أستوعب كل ما حدث، ستة أشهر وأنا زوجة سرية لرجل لا يعرف معنى الرجولة، عام وثمانية أشهر وأنا في علاقة استهلكت من عمري وسعادتي بقدر كافٍ كي تقضي عليَّ وتدمرني، شهور مرت عليَّ بمثابة سنوات عدة، كل يوم يمر كأنه فجوة كبيرة تتسع بعدد سنوات عمري.. حاولت أن أجلس مع روحي وأبحث عن حلول كي أنقذ ما تبقى حتى وإن كان لا يُرى بالعين المجردة، فكرت أن أبدأ من جديد تمامًا، أنتبه لعملي وطموحاتي التي تلاشت مع الأيام، قررت أن أغمس عقلي في العمل مثلما كنت أفعل، حتى إنني فكرت أن ألجأ إلى عمليات غشاء البكارة حتى أعيد كل شيء مثلما كان، وأبدأ من جديد وكأن شيئًا لم يكن.

محوت كل شيء يتعلق به على هاتفي، محوت صوره وصور زوجته ورسائله، وكل شيء، كنت أشعر في هذه المرة أنني حقًا

أكرهـه جـدًّا، ألـوم نفـسي كيـف أعطـي الكثـير لشـخص لا يسـتحق حتـى القليـل.. لكنـي قـررت أن أمحـوه مـن ذاكـرتي، رغـم ضعفـي أسـتمد قـوة مـن أركان جسـدي المنهـك كـي أتحمـل الأيـام دونـه.

وقفـت أمـام المـرآة أحـدق في وجهـي الـذي تغـيرت ملامحـه، وجهـي الشـاحب المتغـير، المـليء بالأسـى، نظـرت بدهشـة وكأننـي لا أعـرف مـن التـي تقـف في المـرآة، لا أعرفهـا ولا تعرفنـي، شـخصان غريبـان لا يجمعهـما سـوى شـخص فـرَّق بينهـما.. بكيـت وأنـا أنظـر بعينيهـا، كأننـي أتوسـل إليهـا لتعـود حيـاة الحقيقيـة، فتحـت درج السراحـة وسـحبت مقصًـا معدنيًّـا سـميكًا، أمسـكت بشـعري وأخـذت أقصـه دون أي رحمـة ولا رأفـة، كنـت أريـد أن أتخلـص مـن كل شيء، أريـد أن أفعـل أي شيء حتـى أبـدأ حيـاتي مـن جديـد.

***

عـدت إلى عمـلي بـكل قـوة، وضعـت كل طاقتـي بالتحقيقـات والأخبـار والأحـداث، حتـى لاحـظ كل زملائـى أننـي تغـيرت عـن المـرات السـابقة، أبعـدت عقـلي عـن كل شيء يذكِّـرني بـه، حتـى إننـي قمـت بعمـل حظـر لـه ولزوجتـه مـن جميـع مواقـع التواصـل الاجتماعـي، منعـت نفـسي أن أعـرف أخبارهمـا.. كان قـرارًا صعبًـا بـكل الطـرق، عقـلي وقلبـي معـه، لكنـي كنـت أنتظـر أن أنسـاه تمامًـا، فقـط أنتظـر وأصـبر .

عـدت إلى حيـاتي التقليديـة الهادئـة التـي لا يشـغلها سـوى العمـل فقـط؛ اسـتيقظ في التاسـعة صباحًـا، أتجـه إلى مقـر عمـلي، أنهـك عقـلي

وجسدي في العمل حتى يأتي موعد رحيلي، أعود إلى غرفتي أرتاح قليلًا، ثم أستكمل عملي من تحقيقات وحوارات صحفية وتقارير، حتى أذهب إلى النوم رغم أن عقلي يستيقظ عندما أضع رأسي على وسادتي، أجده يفتش في كل ما مضى، وكل ما حدث، الذكريات القاتلة دائمًا تستيقظ في جوف الليل، أصوات الحنين والاشتياق تعلو مع هدوء الليل وسكونه.

كنت أفكر به كثيرًا، أقفل عيني وأتذكر كل ما فعله بي كأنه حلم، لكن سرعان ما أتذكر أنه واقع خلف نتائج قاسية أعيش بها كل لحظة.

أهمس لذاتي «ابقي قوية واصمدي»، أصبّر قلبي المجروح بأنها تجربة قاسية تعلمنا منها وسنصير أقوى وأفضل، لكني كنت أراه كل ليلة بأحلامي، أشعر به كأنه معي، أجده بنسخته القديمة التي جعلتني أحبه كل هذا الحب، دائمًا كنت أرى اللحظات الجميلة التي جمعتنا، أرى وجهه المبتسم الطيب الحنون، رغم أنني كنت أتمنى أن أراه بوجهه الحقيقي، وكأن عقلي الباطن يحتفظ بشخصه القديم، ينكر كل ما فعله بي.

***

مرت عشرة أيام على فراقنا، لم تساعدني الأيام كعادتها، لكن بعدما تقبَّلت ما حدث وطمأنت قلبي وأقنعت عقلي أننا سنقدر على النسيان وأصبح لدي قناعة كبيرة أن الانفصال هو القرار الصحيح، دخلت بمرحلة الرفض، رفض لبعده، رفض لرحيله،

رفـض لفكـرة انفصالنـا، كنـت كل يـوم أسـتيقظ مـن نومـي أجـد عقـلي يحـاول أن يسـتوعب فكـرة عـدم وجـوده بحيـاتي، أحـزن، أبكـي، أبحـث عنـه في كل شيء، أفتـح صـوره، أسـأل نفـسي كل ليلـة آلاف الأسـئلة دون إجابـات.. كيـف تقبَّـل رحيـلي؟ هـل اسـتطاع نسـياني؟ مـا الـذي يفعلـه الآن دوني؟ هـل يشـتاق لي؟ عقـلي امتـلأ بأفـكار وأسـئلة ترهقـه كثـيرًا.

سـيطرت عـليَّ فكـرة أن أتصـل بـه، كل يـوم تكـبر هـذه الفكـرة بعقـلي دون أن أنتبـه، لكـن كان ينقـص سـبب لاتصـالي.. كنـت أفكـر كل لحظـة في أن أجـد سـببًا لأتصـل بـه محاولـة منّـي أن أحافـظ عـلى كرامتـي، كرامتـي التـي لم يتبـقَّ منهـا أي شيء !

بعـد تفكـر طويـل في وقـت قصـير وجـدت حجـة قويـة لاتصـالي، تذكـرت أننـي لم آخـذ جميـع أغـراضي وملابـسي مـن شـقته.. كنـت أجلـس بمكتبـي بمقـر الجريـدة، أمسـكت هاتفـي لأكتـب لـه رسـالة قصـيرة، كنـت متوتـرة جـدًّا، كتبـت أكثـر مـن رسـالة وأمسـحها، جهلـت أن أرتـب كلـماتي التـي تفـوح منهـا كل مشـاعر الانكسـار، حتـى كتبـت كلمتـين بمنتهـى الاختصـار ..

– بعـد إذنـك يـا مـراد محتاجـة اروح الشـقة في حاجـات كتـير ليـا عايـزة آخدهـا.

لم يـرد، مـرت سـاعة وسـاعتان وثـلاث وأنـا أنتظـر بـكل ترقـب، كنـت خائفـة مـن أي رد فعـل لم أتوقعـه.. أنظـر إلى هاتفـي بـين الحـين والآخـر وكأننـي أحايلـه أن يـدق بصـوت رسـائله.

قبل انتهاء يومي العملي بنصف ساعة، دق هاتفي بنغمة الرسائل المخصصة له، فتحت هاتفي مسرعة وصوت دقات قلبي يملأ مكتبي..

- إنتي معاكي المفتاح، روحي في أي وقت.

صمتُّ وأنا أفكر في رد جديد، لكني لم أجد أي رد أو حجة أخرى، شعرت أنه يختصر الحديث معي ولا يود أن يتحدث كثيرًا، قطعت حبل تفكيري وأنا أنوي أن أذهب للشقة أجمع أغراضي وأنتهي من هذه القصة، بعد دقائق قليلة وجدت رسالة جديدة منه..

- أنا عايز مفتاح الشقة، كمان ساعة هروح على هناك.. ياريت تكوني هناك عشان آخده منك.

شعرت وقتها بالسعادة رغم أن كلامه لم يحمل ذرة حب أو اشتياق، لكني اكتفيت أن أراه فقط.. كان هذا اللقاء صعبًا جدًا، حملت على عاتقي عناء لقائه بعد كل ما حدث، اختلاط شعور الحب والبغض يتزايد، كنت أفكر طوال الطريق ما الذي أفعله عندما أراه، أدير وجهي عنه أم ألقي نفسي بين ذراعيه؟ أقف أمامه بكل قوة أم أبكي بحرقة؟

انتظرته في الشقة التي جمعت وفرقت بيننا، مشيت في كل أركان الشقة وأنا أتذكر كل اللحظات التي جمعتنا، بحثت عن لحظات السعادة التي سرقتها لكني لم أجد غير الحزن والألم.. كنت أنظر إلى باب الشقة بكل رعب، أهتز بجسمي يمينًا وشمالًا،

حتى سمعت أصوات مفاتيحه خارج الشقة، انتفضت من مكاني لأستعد للقائه، دخل وأغلق الباب وألقى السلام عليّ، ثم سألني عن أحوالي، كنت أرد بأقل الكلمات وأنا أهرب من النظر بعينيه..

- أخدتي كل حاجتك اللي هنا؟

- أنا لسه واصلة، مالحقتش آخد حاجة.

- طيب هاتي المفتاح ولمي حاجتك براحتك.

نظرت له وأنا أجده يقطع حبال الأمل، ينهي كل شيء يمكن أن يجمعنا مرة جديدة، كنت أتوقع أن يقول كلمة واحدة فقط أشعر منها أنه باقٍ، لكنه دائمًا يخذل توقعاتي.. اقتربت منه قليلًا ثم سألته بصوت ممتلئ بالبكاء:

- مش عارفة إذا كان اللي هطلبه دا صح ولا لا.. بس أنا حاسة إن جوازنا كان صح. ممكن تقولي انتي طالق؟

لم أتمكن من السيطرة على دمعاتي التي دائمًا تخرج عن طوعي، بكيت بحسرة وألم، اقترب مني مراد واحتضنني وأخبرني أنه لا يريد الابتعاد عني، وأنني المتسببة الوحيدة التي تنهي هذه العلاقة، لم أعاتبه على أي شيء فعله، كنت أعلم جيدًا أنه لم يحبني يوم، وأنني مجرد علاقة مؤقتة ونزوة، لكني كنت بحاجة لوجوده.

عدت بكل ضعف لكن هذه المرة قررت أن أصمت وأتقبل كل شيء دون أي اعتراض، أصبحت أنتظر مكالمته أو رسائله، لم

أتصل به أو أرسل له رسائل، كان هو من يتصل بي إذا أراد أن يراني وقتما شاء، يرسل لي رسالة يخبرني أنه سيذهب إلى شقة الزوجية يطلب مني أن أتجه إلى هناك، حتى إنه أصبح لا يهتم بأي شيء يخصني وعن أحوالي، لا يهتم أن يعرف أين أنا أو ماذا أفعل وهل أنا بخير أم لا.

مر شهران وأنا في هذه العلاقة المهينة، فضلت الصمت كي لا أخسره، رضيت بكل شيء أقل مما أستحقه، كنت أنتظر شيئًا ما يحدث ينهي هذه العلاقة، أنتظر قلبي يتمرد على هذا الشخص، أنتظر عقلي ينتفض لكرامتي وكبريائي.. كنت أنتظر والأيام لا تنتظر، العمر يركض بلا هوادة، كل شيء يفر من بين يدي مثلما يفر الماء من الغربال.

أسبوع آخر في علاقتي بمراد، اتصل بي وطلب مني أن أذهب إلى الشقة لنلتقي، أنهيت عملي وتوجهت إلى هناك، أعددت له الطعام وانتظرته، بعد حوالي ثلاث ساعات، خرجنا سويًا من الشقة ليذهب كلانا إلى بيته، أغلق الباب وأنا خلفه أنتظره، سمعت صوت رجلين ينزلان من أعلى، التفتّ بكل تلقائية فوجدت جاسر بوجهي، نظرت له وأنا أدقق بملامحه لأتأكد أنه هو، كان يرميني نظرة حادة كأنه لا يصدق، تمنيت أن يكون شخصًا آخر شبيهًا له، لكن أمنياتي تبخرت بعدما اقترب مني جاسر بكل غضب وأمسك ذراعي بعنف شديد، وسألني مَن هذا وماذا أفعل معه في هذا المكان، لم أتمكن من الرد وتلعثم لساني، التفت له مراد وصاح بوجهه وأبعد يديه عني، وسألني

هـو الآخـر عنـه، رددت عـلى جـاسر وأنـا أترجـاه أن يهـدأ ليفهـم كل شيء، لكنـه لم يهـدأ ممـا تطـور ليصطـدم مـع مـراد، وارتفعت حـدة النقاش بينهـما، وأنـا أنظـر لهـما وكأنـه كابـوس مزعـج، لا أعـرف مـا الـذي أفعلـه سـوى أننـي أخـبر جـاسر أن مـراد زوجـي، تغـيرت ملامـح مـراد وكأنـه شـخص آخـر لا أعرفـه أصـاح بوجهـي وأجـاب بـكل حـدة.

-جوزك مين انتي كمان، إنتو مجانين ولا إيه؟

- انتو عايزين تلبسوني مصيبة ولا إيه.

كنـت أنظـر لـه باندهـاش، لا أصـدق مـا هـذا، مـراد بـكل هـذا السـوء، تخـلى عنـي بهـذا الشـكل؟.. نظـر لي جـاسر نظـرة كلهـا اشـمئزاز ثـم نـزل، ركضـت خلفـه دون تـردد..

- عمري ما كنت أتخيل أنك بالرخص دا.

- والله انـت فاهـم غلـط يـا جـاسر، أنـا متجـوزاه وخبينـا دا لأسـباب.

- ابوكي لازم يعرف حقيقة بنته اللي فاكرها محترمة.

حاولت أجعله يسمعني لكنه ركب سيارته ورحل مسرعًا.

صعـدت لمـراد كـي أترجـاه أن يقـف جانبـي هـذه المـرة فقـط، كان يجلـس عـلى أريكـة ويـشرب السـجائر بـكل غضـب، نهـض مـن مكانـه عندمـا رآني، أخـبرني بـكل غضـب ..

- إنتـي تعمـلي معايـا كـدا؟ أنـا أتخـط في الموقـف دا؟ أنـا مـش عايـز أشـوف وشـك تـاني.

- مـراد والله أنـا في مصيبـة، إنـت فاهـم غلـط، والله أنـا أتفاجئـت

بيه زيي زيك.

– أنا مش عايز أشوفك تاني، خلصنا لحد كدا.. ماتخلنيش أوريكي وش تاني انتي ماشفتهوش في حياتك.

نظرت له وأنا أتأمل ملامح هذا الشخص الذي لا أعرفه، وجهه كالشيطان ممتلئًا بالشرور، أخذ مني مفتاح الشقة وشدد على أن أختفي من حياته.

خرجت من العقار وأنا أشرد في كل ما حدث، ركبت سيارتي وأنا أحاول الاتصال بجاسر كي أمنعه من أن يخبر أبي بما حدث، لكنه أغلق الهاتف ولم يعطني فرصة لأشرح له كل شيء.

أقود سيارتي دون أي هدف، كنت لا أعرف أين أنا وأين أتجه، أوقفت سيارتي بعد وقت طويل من القيادة، بكيت بكاءً حادًا وأنا أحاول أن أهدأ لأستعد لمواجهة القادم.. أدرت سيارتي بعد أن تأخر الوقت وقررت أن أعود للبيت، طوال الطريق وأنا أتمنى أن يقف بجانبي جاسر ولا يخبر أبي بأي شيء، لكنني كنت أعلم أنه سينتقم مني ردًا لكرامته.

وقفت أمام المنزل أخيرًا، وصعدت وأنا أرتجف خوفًا، فتحت باب الشقة ودخلت بهدوء، وجدت أبي يجلس أمامي وكأنه في انتظاري، كان على وجهه ملامح الحزن والخيبة، تأكدت أن جاسر أخبره بكل شيء، نهض من مكانه واقترب مني..

– بابا، أنا والله اتجوزنه، هو طلب مني أنه يكون في السر مؤقت. .وكان هيجي يقابلك، والله هو دا اللي حصل.

لم أشعر بأي شيء سوى بصفعات كثيرة على وجهي بكل عشوائية، لم أحاول أن أدافع عن نفسي وأحمي وجهي من هذه الصفعات، كنت أحتاجها بشدة وكأنني أريد أن أخبره أن يزيد من حدة الضربات كي أنتقم من نفسي على كل ما فعلته، دافعت زوجة أبي عني وحاولت أن توقف أبي لكنه لم يهدأ..

– أنا مش عايز أشوفك تاني، أنا من النهارده كان ليا بنت وماتت.. إمشي غوري لأمك أنا مش عايزك.

ركعت له وأنا أترجاه ألا يفعل، أخبره أنني ليس لدي غيره في حياتي، أترجاه أن يغفر لي ويسامحني، لكنه ركلني بقدمه وأقسم إنه لن يسمح لي بدخول هذا البيت مرة أخرى، سحبني من يدي وفتح باب الشقة ثم أخذ مني مفتاح السيارة ودفعني إلى خارج الشقة وأغلق الباب بكل عنف.

وقفت أمام المنزل، وأنا أطرق على الباب بطرقات هادئة، وأنادي على أبي وأبكي بقوة، كنت أتمنى أن يتراجع أبي عن قراره هذا، وأن يفتح الباب ويحتضنني ويحنو عليّ، تمنيت أن يغفر لي ويسمعني ويحتوي أوجاعي، أن يخبرني أنه لن يتخلى عني وسيحميني، لكني كنت لا ألوم عليه، عذرته، أعلم أنه رد فعل قوي من أب شرقي أحَب أبنته ووثق بها، وأعلم أيضًا أنني خذلته وجعلته يشعر بالخيبة.

مر حوالي ساعتين أو أكثر وأنا جالسة بجوار باب الشقة، حتى مللت وفقدت الأمل، نزلت أسفل العمارة وأنا لا أعرف

أيــن ســوف أذهــب وإلى مــن، اتصلــت بمــي صديقتــي وســألتها هــل يمكننــي المبيــت عندهــا اليــوم، رحبــت جــدًّا وأخبرتنــي أنهــا في انتظــاري.

مــي صديقــة لي مــن منــذ أكثــر مــن عــشرة أعــوام، وهــي زوجــة وأم لابــن ذي العــام الواحــد، أوقفــت تاكــسي وأنــا أنظــر إلى العــمارة التــي عشــت بهــا ســنوات عمــري، وكأننــي أودعهــا.

طــوال الطريــق وأنــا أفكــر بــكل مــا حــدث لي خــلال هــذه الفــترة القصــيرة، تذكــرت نفــسي قبــل هــذا بعــام واحــد، اندهشــت! عــام واحــد يغــير كل شيء بهــذه الطريقــة؟!.. كنــت أخــبر نفــسي أن مــراد ســيراجع نفســه بعــد أن يؤرقــه ضمــيره، أُطمئــن روحــي أنــه ســيتصل ويخــبرني أن كل شيء ســيكون عــلى مــا يــرام.

لم تكــن يومًــا الأمــان الــذي حلمــت بــه طــوال حيــاتي، أنــت مــن أرهبتنــي وأدخلــت الخــوف لقلبــي، أنــت وحدك الــذي جعلني أشــعر أن الوحــدة خــيرًا وأفضــل مــن حــب بائــس مدمــر يــؤدي للهــلاك، كانــت تؤلمنــي الوحــدة لكنــي الآن علمــتُ أنهــا كانــت نجــاة مــن كل شيء.. نجــاة منــك.

كانــت مــي تعلــم بعلاقتــي بمــراد لكنــي لم أخبرهــا بقصــة زواجنــا العــرفي، دخلــت في حالــة مــن الصدمــة بعــد علمهــا، اكتفــت بالصمــت رأفــة بحــالى، لكنــي كنــت أرى بعينيهــا كل اللــوم والعتاب، حاولــت تهدئتــي وفكــرت معــي بجميــع الحلــول الممكنــة، لكــن دون أي جــدوى.

كان عـليَّ فقـط أن أهـدأ وأحـاول أن أسـتوعب كل مـا حـدث، بعـد حـوالي سـاعة اتصلـت زوجـة أبي، أجبـتُ عليهـا بلهفـة وخوف، كانـت فقـط تطمئـن عـليّ، سـألتني عـلى مـكاني وأين سـأقيم، سـألتها أنـا عـن أحـوال أبي ومـا الـذي ينـوي فعلـه، أخبرتنـي أنـه دخـل في نوبـة مـن التعـب الشـديد ممـا اضطرهـا هـي أن تغلـق الموضـوع مؤقتًـا حتـى يهـدأ، أخبرتنـي أنهـا سـتعاود الاتصـال بي لتطمئـن عـلى حتـي يحـدث جديـد، حاولـت أن أخلـد إلى النـوم لكـن كلـما غفـوت أجـد وجهـه أمامـي، وجهـه المخيـف الـذي رأيتـه بآخـر مـرة، كنـت أبحـث عنـه في كل برامـج التواصـل، أكتـب لـه رسـائل قصـيرة ثـم أمسـحها، لأول مـرة أشـعر أننـي خائفـة منـه وأخشـى أن أقـترب منـه، لا يمكـن أن أتخيـل أن مـراد بهـذا السـوء، لم أتخيـل حتـى أن يكـون هنـاك شـخص بهـذا السـوء.

***

العقـرب.. سـألته في بدايـة معرفتـي بـه عـن برجـه، طلـب منـي أن أتوقـع بـأي بـرج ينتمـي لـه، سرحـت بوجـه وأخبرتـه أنـه ممكـن أن يكـون «سرطـان» أو «جـدي»، ضحـك وسـألني بتهكـم، لهـذه الدرجـة تريـن أننـي طيـب؟ تعجبـت مـن رده وسـألته..

- هي الطيبة بقت حاجه وحشة؟

- بس أنا مش طيب طول الوقت.

لم أنتبـه لحديثـه ولم آخـذه بعـين الاعتبـار، كنـت حقًـا أراه شـخصًا طيبًـا، لكنـه أخـبرني أنـه بـرج العقـرب، صدمـت لأننـي لم أتوقـع أنـه ينتمـي لهـذا الـبرج الصعـب، ضحكـت وأخبرتـه بتلقائيـة..

- يا ماما.

- إيه دا؟ هو أنا كل ما أقول لحد إني عقرب يقولي كدا.

- هو برج يخوّف أصلًا، لا دا هو أسوأ برج فعلًا.

العقـرب بـرج سيء، أغلـب المنتمـين لـه سـيئون للغايـة، يميلـون دائـمًا إلى الأنانيـة وحـب الـذات، دائـمًا يفكـرون بأنفسـهم فقـط وسـعادتهم حتـى لـو عـلى حسـاب الآخريـن، غـير أنهـم ليـس لديهـم عزيـز، أقويـاء لدرجـة مخيفـة، بغضبهـم نشـعر أنهـم ممكـن أن يتحولوا إلى مصـاصي دمـاء.. كنـت أعلـم أن لـكل قاعـدة شـواذًا وليـس بالـضرورة أن تنطبـق هـذه الصفـات عـلى كل مواليـد هـذا الشـهر، لكـن مـراد كان مثـالًا قويًّـا للعقـرب، تنطبـق عليـه صفـات هـذا الـبرج بـكل حذافـيره، رغـم كل هـذا أحببـت هـذا الـبرج جـدًّا، واسـتمررت في القـراءة عنـه لمعرفـة المزيـد مـن خبايـاه وأتعلـم

كيف أفوز بقلبه دائمًا، حتى إنني ذات يوم كنت بحفلة «حناء» لصديقة ما، ووجدت سيدة سودانية ترسم الحناء، فطلبت منها أن ترسم على يدي عقربًا..

لم يكن العقرب مجرد برج ينتمي له، لكنه بالحقيقة عقرب سام مدمر، يستخدم السُم لتخدير فرائسه كي يتمكن منهم، دخل حياتي بهدوء وهو يحقن السُم داخل أوردتي دون أن أنتبه، كلما مر الوقت أشعر أنني أفقد حياتي، أغيب عن عالمي وأهبط إلى الدرك الأسفل، دمرني ودمر ما تبقى من روحي وحياتي، كعقرب لعين تسلل إلى فريسة ضعيفة وأنهى حياتها دون رحمة ..

مرت خمسة أيام دون أي جديد، لم يتصل بي أبي، وكالعادة لم يكترث مراد، بكل مرة أتصل بزوجة أبي لأعرف أي جديدٍ يعيدني للحياة مرة أخرى أجدها تخبرني بطريقة غير مباشرة أن أبي يرفض عودتي، أجَّلت اتصالي بأمي على أمل، كان لدي بصيص من الأمل، أتخيل بين الحين والآخر أن يتصل بي أبي ويخبرني أنه سامحني ولن يتخلى عني، أتخيل أن يحتضنّي ويربت على قلبي ويحتوي آلامي..

تركت عملي، حتى إنني لم أتذكره، رفضت أن أجيب على أي اتصال من زملائي بالجريدة، كان كل همي في هذه الأثناء أن أرحل من منزل صديقتي مي بعد خجلي من زوجها، يومًا بعد يوم أتعثر ولا أجد البدائل، حتى إنني خفت أن أتصل بعمي أو عمتي لأنني أعلم أن جاسر بالتأكيد أذاع الخبر انتقامًا مني وردًا لكرامته..

***

في اليوم السابع، استيقظت على رسالة من الجريدة على بريدي الإلكتروني..

الأستاذة/ حياة جلال العدوى

تحية طيبة وبعد

بناءً على السلوك الذي صدر منكم بخصوص الغياب المستمر والذي تخطى الحد المسموح به، والتقصير الواضح في مجهوداتكم وأدائكم المهني، فبكل أسف نخبركم بعد الاطلاع على جميع الآراء بإصدار قرار فصل نهائيّ من الجريدة، ونطلب منكم الحضور لإنهاء كافة الإجراءات وصرف مستحقاتكم المالية، متمنين لكم النجاح والتوفيق.

شعرت وقتها أن الحياة أصبحت بلا ألوان، حتى إنني لا أرى لونها الأسود.. كنت وقتها أمرّ بأسوأ أيام حياتي، خسرت كل شيء، خسرت عملي وأحلامي وطموحي، خسرت أبي وعائلتي، وقبل كل هذا خسرت «حياة»، ما أقسى أن يخسر الإنسان نفسه، أبشع الخسائر عندما يخسر الإنسان روحه ويشعر أنه يحيا بجسد دون روح، كنت أعلم أنه لا بُد أن أرحل من هذا البلد اللعين، كل ما به يطردني، كل شيء كان يدفعني للحياة اختفى في لمحة بصر، كل هؤلاء الذين كانوا يعانقونني بكل قوة، طردوني بلا هوادة وأفلتوا يديّ بكل مقت..

قررت أن أراسل أمي وأخبرها كل ما حدث وأنه جاء الوقت كي أعيش معها وأترك كل شيء.. أرسلت لها رسالة على الفيس

بـوك وأخبرتهـا أننـي بأمـسّ الحاجـة لهـا، كانـت أمـي هـي آخـر يـد ممكـن أن تمـد لي العـون وتـرأف بي، اتصلـت بي عـلى الفـور، عندمـا سـمعت صوتهـا انفجـرت بالبـكاء، كنـت أتمنـى أن ألقـي أوجاعـي بحضنهـا، افتقـدت كثـيرًا حضـن الأم في كل لحظـات الاحتيـاج التـي مـرت عـليَّ.. بعـد أن هـدأت قليـلًا سردتُ عليهـا قصتـي مـع مـراد باختصـار، كنـت أعلـم أنهـا قصـة صادمـة لـكل مـن يطلـع عليهـا، عاتبتنـي عـلى عـدم علمهـا منـذ البدايـة، ولامتنـي أيضًـا عـلى فعلتـي هـذه، لكنهـا كانـت أكثـر رأفـة بي، توسـلت إليهـا ألا تتركنـي هـي أيضًـا..

– أرجوكي ماما ماتتخليش عني، أنا ماليش حد غيرك.

– كيـف بتحكـي هيـك، إنتـي بنتـي الوحيـدة وكتـير بحبـك ماما، أنـا كـمان مـاإلي غـيرك ب هالدنيـا، تقبريني إن شـالله.

أخبرتنـي أنهـا سـوف تذهـب بأقـصى سرعـة إلى السـفارة اللبنانيـة بانجلـترا لتعـرف الإجـراءات المطلوبـة لإرسـال دعـوة زيـارة، لكنهـا أخبرتنـي أن هـذه الإجـراءات يمكـن أن تأخـذ وقتًـا ليـس بقليـل.

كنـت طـوال الوقـت أفكـر في مـراد، كيـف تخـلى عنـي بهـذا الشـكل! أنهـى القصـة وكأننـي علاقـة عابـرة أخـذت يومـين وانتهـى الأمـر، كيـف تمكـن مـن نسـياني! أكثـر مـن سـبعة أيـام لم يتصـل بي أو يرسـل لي رسـالة كـي يطمئـن حتـى، لم يغلبـه فضولـه ليعـرف مـا الـذي حـدث لي!

كان كل تفكـيري أن أجـد أي وسـيلة كـي أغـادر شـقة صديقتـي،

لقد تجاوزت الحد المتاح.. قررت أن أتصل به، أخبره بكل الذي حدث، أجبره أن يحمل همي، ويتحمل معي نتيجة فعلتنا التي أدفع ثمنها وحدي، سألت روحي لماذا أتركه يعيش بسلام؟، وأنا أموت كل ليلة، كنت أعلم أنه لن يساعدني بأي شكل من الأشكال، وأنا أيضًا لم يكن داخلي أمل أن يقف جانبي، هو أيضًا انتهى من حياتي، قصتنا انتهت نهاية مأساوية، كل شيء تبدل، حتى مشاعر الحب والاشتياق تحولت إلى بُغض مقيت، كل ليلة تمر أزداد كرهًا له، أصبحت لا أرى وجهه وملامحه الحقيقية، كنت أراه كشيطان ملعون، وجهه مثل وجه الحية ملامحه كلها مشوهة، حتى صوته الذي أسمعه يرن في أذني كل لحظة، كان بمثابة صوت صهيل حاد يكاد أن يفجر رأسي.. لكني رغم كل هذا الشعور فكرت أن أطلب منه أن يسمح لي بالإقامة بشقته خلال الفترة التي انتظر بها انتهاء إجراءات سفري، لم يكن لدي خيار آخر، وكان ينبغي أن يعلم حجم الضياع الذي سببه لي.

اتصلت به وأنا أرتجف، كنت أخشى من رد فعله، رغم أنه ليس هناك أمر أصعب مما حدث، أو رد فعل أسوأ من رد فعله الأخير، حاولت أن أبقى صامدة وأدعي القوة قليلًا، لم يُجب على اتصالي، لكني سمعت «رنة» أدعية دينية، يسمعها كل من يتصل به، لم أعيد الاتصال وأرسلت له رسالة قصيرة..

« لو سمحت رد عليَّا.. أنا مسافرة لأمي ومش محتاجة أي حاجة غير إنك تساعدني»

بعد نصف ساعة، اتصل بي، التقطت أنفاسي وأجبت بخوف بَين . .

– ايوا يا حياة.. خير؟

صمتُ قليلًا، واختفت الكلمات، شعور مختلف، عقلي مشوش ممتلئ بالأفكار.. كنت لا أعرف حينها أي شعور صحيح، شعور البغض أم شعور الحب!

– إنتي معايا؟

– معاك.. أنا بس كنت محتاجة منك طلب أخير..

أنا هسافر لأمي وكنت محتاجة..

أصل أنا الفترة دي قعدت عند مي و..

حبست أنفاسي، كي لا يسمع أنيني، لم أتمكن من ترتيب حديثي وعرض طلبي..

– ممكن تتكلمي لأني مش فاضي.

كعادته كان يتحدث بكل قوة وصلابة وكأن كل ما حدث أمر هين، هدأت وأخبرته بكل ما حدث منذ اليوم المشئوم، حكيت له ودمعاتي تتساقط بهدوء دون أن يشعر، أخبرته أن أبي طردني من البيت وأنني من وقها أقيم بمنزل مي، كان يسمع دون أي تعقيب..

– بس مش محتاجة منك غير إنك توافق أقعد في شقتك لحد بس لما ورقي يخلص.. والورق مش هياخد وقت طويل..

أنـا مـش عارفـة اروح فـين، وتقّلـت عـلى مـي وجوزهـا مايعرفش غـير إني زعلانـة مـع بابـا ويومـين وهرجـع.. اليومـين بقـوا عـشرة أيـام.. أرجـوك يـا مـراد، لـو مـش عايـزني اروح الشـقة دي اقـترح عليّـا مـكان تـاني أروحـه.

- وأمك هتخلص الورق إمتى؟

- مش عارفة.. بس مش هياخد أكتر من شهر يعني.

صمت قليلًا.. وأخبرني أنه سوف يفكر ويعاود الاتصال بي.

***

أحببته بقوة رجل، وأحبَّني بضعف أنثى.. أحببته في أصعب المواقف والظروف، وتخلى هو عني في أشد احتياجي له، كان أضعف من أنه يواجه أو يقف كرجل في ظهر أنثى ضعيفة بأمسّ الحاجة له، دائمًا يفضِّل الهروب، يجد أن الهروب هو الحل، لكن الهروب ليس من شيم الرجال.

كنت أنتظر اتصاله، لكنه تأخر كعادته.. في الثانية بعد مُنتصف الليل اتصل بي، أجبت مُسرعة ..

– لو عايزة تروحي الشقة من بكرة روحي. .هتقعدي الفترة دي من غير أي مشاكل..

لو حصل أي حاجة منك، ماتلوميش حد غير نفسك..

– حاضر، ماتاخفش أنا...

– أنا مابخافش.

كان لا بُد أن أبقى ضعيفة، اخترت من البداية أن أسلّم زمام أمري لشخص، ودائمًا الطرف الأضعف هو الخاسر الوحيد.. وافقته على شرطه، لأنني لم يبقَ لدي قوة على أي مشاكل أو مناورات، حتى إنني لا أجد أهمية للعتاب واللوم، انتهى كل شيء، أنتظر الوقت يمر كي أترك كل شيء وأرحل بلا عودة.

عندما علمت مي أنني سوف أنتقل إلى شقته، رفضت بشدة، كانت تريد أن أنهي علاقتي به نهائيًّا، لكني أخبرتها أنني لا بُد أن أرحل وطمأنتها أنه لن يحدث أي شيء.

أعددت نفسي، ونويت الذهاب إلى شقته.. في الساعة الثالثة

عـصرًا، أرسـلت لـه رسـالة قصـيرة، أخـبره أننـي جاهـزة وفي انتظـاره بـأي وقـت.

اتصـل بي في الخامسـة والنصـف، ليخـبرني أنـه متجـه إلى الشـقة، تحركـت أنـا أيضًـا مـن منـزل مـي وأخـذت تاكـسي وتوجهـت إليـه مبـاشرة.. طـوال الطريـق وأنـا أفكـر في كيـف سـتكون لحظـة لقائنـا، أسرد قصتـي معـه في عقـلي منـذ بدايـة علاقتنـا حتـى النهايـة التـي وصلنـا لهـا، أفـكار كثـيرة لم يعـد عقـلي يسـعها، دقـات قلبـي التـي لم تهـدأ لحظـة، رجفـات كثـيرة تصيـب صـدري، وقبضـة روح لم تتركنـي منـذ وقـت طويـل.

وقفـت أسـفل البنـاء، لم أجـد سـيارته، نزلـت مـن التاكـسي وصعـدت إلى الشـقة، طرقـت عـلى البـاب لعلـه يكـون موجـودًا، لم أتصـل بـه لأخـبره أننـي وصلـت، وقفـت أنتظـره أمـام الشـقة، بعـد حـوالي خمـس عـشرة دقيقـة اتصـل بي يسـألني أيـن أنـا الآن، أخبرتـه أننـي أمـام الشـقة..

سـمعت صـوت المصعـد، كانـت دقـات قلبـي تـزداد كلـما اقترب، خـرج مـن المصعـد ووجـدني بوجهـه، وقعـت عينـاي بعينيـه، لكنـي بسرعـة نظـرت إلى الأرض، كان يحمـل أكياسًـا عديـدة، اقـترب مـن البـاب ليفتحـه وهمـس بصـوت هـادئ..

- ماقولتيش ليه إنك وصلتي؟

- ماحبتش أزعجك.

- ماكنتش عايز حد من الجيران يشوفك.

صمتُّ دون أي تعقيب، كنت على دراية كاملة بأن شريط الإهانات لن أنتهي منه.. دخلنا الشقة ثم أغلق الباب، كم أكره هذا المكان، كل شيء به يخنقني، الذكريات به مؤلمة، ظللت أنظر إلى كل مكان به، كل زاوية به تحكي ألمًا..

- أنا جبتلك شوية حاجات للتلاجة، وحاجات عشان لو هتعملي غدا.

- متشكرة.

- ماتفتحيش لأي حد مهما كان، مش عايز حد يحس إنك هنا.

كنت أتحاشى النظر بعينيه، حتى إنني لا أنظر إليه مطلقًا، كأنه شخص لا أعرفه، تبدلت ملامحه وصوته ومشاعره، من السهل أن تجعل شخصًا يكرهك، ومن الصعب جدًّا أن تجعله يحبك.. تمكَّن مراد أن يجعلني لا أراه حتى وإن كان أمامي وجهًا لوجه.

وضع الأكياس على المنضدة ثم رحل دون أي حديث، انخرطت في البكاء، أوجاع قلبي تحاصرني من كافة الاتجاهات، لم يعد هناك أي شيء يجعلني أهدأ وأستكين.. نظرت عليه من خلف زجاج الشرفة، كان يخبرني دائمًا أنه شخص قوي، عندما يقرر أن ينتهي من شيء، من المستحيل أن يرجع عن قراره.

كنت أسال نفسي بين الحين والآخر: ما الذي كان ينقص مراد بحياته؟ ما الذي يريده لتكتمل سعادته.. تزوج امرأة

على قدر جيد من الجمال ومن عائلة مشرفة، ولديه ابنة جميلة، ويعيش حياة هادئة حتى لو كان ينقصها التفاهم، لكن لم ترضه هذه الحياة، فتعرف بأخرى، جميلة وناجحة، وأيضًا من عائلة مشرفة، وأحبَّته حد الجنون، وكان سعيدًا معها جدًّا، بشهادته هو.. لكني لا أعرف ماذا يريد كي يستقيم!

دائمًا يخبرني أنه إذا أراد شيئًا فإنه لا يهدأ حتى يصل إليه، وأخبرني أنه لا يتذكر مرة أنه تمنى شيئًا ولم يتحقق، ضحكت وقتها وسألته بتهكم، هل لديه اثنان من الجن يحققان له ما يريد ويتمنى؟! لكنه أخبرني أن بالتأكيد هناك أشياء تمناها ولم تحدث حتى الآن، لكن لديه أمل أنها ستحدث، أخبرني أنه تمنى أن ينجب صبيًّا، وأنه لا يحب الإناث مطلقًا ولم يتمناهن يومًا، أعترف أنه حزن حزنًا شديدًا عندما علم نوع الجنين، لكنه شيء طبيعي أن يحب ابنته التي من صُلبه، لكن رغم هذا يدعو الله أن يكون الطفل القادم صبيًّا.

مر يومان، ثلاثة، أربعة، وأنا بهذا السجن اللعين وحدي، لم تقفل عيناي إلا مع طلوع النهار، أخاف كثيرًا بعد أن ينتهي اليوم ويحل الظلال ويسود الهدوء بكل الأماكن، أسمع أصوات الرياح بكل خوف، أتخيل أن هناك شخصًا يحاول فتح باب الشقة، أشعر أن هناك شيئًا ما يتحرك بأركانها، كنت لا أغلق قناة القرآن الكريم كي يهدأ قلقي وخوفي..

كل لحظة مرت عليَّ وأنا وحدي أتجرع مرارة ما فعله هو بي وما فعلته أنا بنفسي، أنا لا أحمِّله مسئولية أي شيء، لا أحمِّله

ضياعي وكسرتي، أعفيه من أي شيء .. أتحمل أنا مسئولية كل ما مر بي، كل ما أصابني، أنا وحدي التي فعلت كل هذا بنفسي، أنا التي أغلقت عينيها وهرولت نحو الخيبة، أنا التي ضربت كل شيء بعرض الحائط.. ضحيت بكل أحلامي وطموحاتي ومستقبلي وأهلي، ألقيت بروحي في التهلكة، التهلكة التي لا تنفعها توبة ولا شفاعة.

طوال حياتي وأنا أؤمن بان الإنسان مسيَّر في كل حياته، أؤمن أن الله أعطى كلًّا منا حق الاختيار في كل شيء إلا الموت والمرض، نحن من نختار حياتنا، نرسم كيف ستكون، نختار حتى الأشخاص الذين يدخلون حياتنا.. أنا وحدي التي اخترت، كنت أرى نهاية الطريق منذ البداية، حتى إن الله لم يتركني بالمنتصف، أرسل لي رسائل وإشارات كثيرة تضيء عتمتي وتشد من أزري كي أعود، لكني اخترت، وعلى من يختار أن يتحمل نتيجة اختياره في صمت.

لم يتصل بي نهائيًّا، أو حتى يرسل رسالة، يطمئن فقط هل مازلت على قيد الحياة أم لا.. بعد أسبوع، سمعت صوت غلق باب الشقة، انتفضت مسرعة وركضت خارج الغرفة كي أرى من بالشقة، كان هو مراد..

- مين؟

- هيكون مين يعني؟ هو في حد معاه مفتاح غيري!

لم أجب، لا أعلم بأي طريقة سيفهم كل ما أشعر به وأنا

أعيش بهذا السجن!؟ كنت أفضِّل الصمت عن أنني أتحدث لقلب أصم..

وضع أكياسًا جديدة على المنضدة ورحل، لم يتجاوز الثلاث دقائق، كنت أشعر أنني مجرد حيوان يترك له الطعام ثم يرحل.. شعور مؤلم، شعور البخس مؤلم.

اجلد نفسي كل ليلة، أمزق قلبي لومًا على ما تسببه لي، أبكي بحرقة كل ساعة على ما فعلته بنفسي، أتساءل كيف سمحت له أن يتسلل إلى قلبي بهذا بالشكل! كيف غفلت عنه ليخترق عالمي وسط كل هذا الزحام الذي أعيش به! لمَ هانت نفسي عليّ لهذه الدرجة، لمَ تهاونت في أن أضع نفسي في مثل هذه المكانة المهينة؟ أكاد أن أصل لحد الجنون كلما حاولت أن أقنع عقلي أن كل هذا واقع أعيش به وليس كابوسًا.

الحب!! الحب يبني ولا يهدم، يُنير ولا يُعتم، ينصر ولا يظلم.. لكني عشت الحب معه بشكل آخر، الحب معه مقيت، قاسٍ، ومدمر.

كنت أحايل الوقت أن يمضي كي أخرج من هذا السجن الملعون، أتصل بأمي كل يوم كي أعرف متى الرحيل، لكنها تخبرني أن إجراءات السفر إلى إنجلترا ليست أمرًا سهلًا، فكان علينا الانتظار والصبر، لكنه لا صبر بقي، ولا قلب بات ينتظر.

أمسك هاتفي كل لحظة وأفتح صور أبي الذي أفتقده كثيرًا، أبكي بحرقة على غيابه عني كل هذه المدة، أشتاق لهذا الرجل

الصعب القاسي، أشتاق لحضنه الدافئ الواسع، كنت أشرد وأتخيل لو عاد بي الوقت قليلًا، كنت سأحتضنه أكثر، وأجلس معه أوقاتًا كثيرة، كنت وافقت أن ألعب معه أدوار الشطرنج، حتى لو ربح هو وأنا خسرت، كنت سأوافق أن أترك الصحافة وأعمل معه بشركته الخاصة.. لو عاد الزمن للخلف لما لجأت لرجل غيره، كنت سأكتفي به حبيبًا وصديقًا.

***

بعد ثلاثة أيام أرسلت له رسالة أخبره أنني أريد الخروج لتجديد جواز السفر، رد سريعًا وأخبرني أنه سيمر عليَّ اليوم كي يعطيني نسخة من مفتاح الشقة.

جاء في التاسعة مساءً، وضع نسخة من مفتاح الشقة على المنضدة، ثم سألني إذا أردت شيئًا في إنهاء إجراءات السفر، أخبرته إذا أردت شيئًا سوف أطلب منه المساعدة.. كنت أول مرة أنظر بعينيه منذ لقائنا الأخير، شعرت وقتها بأحاسيس غير مفهومة وغير واضحة، سألني عن موعد السفر وعن انتهاء أمي من الإجراءات..

– هو انت للدرجة دي مستعجل إني أسافر؟

نظر لي بعمق، وأجاب بهدوء بالغ:

– أنا مش عايزلك البهدلة بس، ماعدش له لازمة وجودك هنا.

ابتسمت بسخرية وأنا أنظر للأرض، ثم رفعت رأسي ونظرت

لـه بحـزن وأسـى، كيـف سـأخبره أنـه السـبب، كيـف نـسي هـو أنـه السـبب في كل هـذا الضيـاع الـذي حـلَّ بي، لكنـي فضلـت الصمـت، أوقـات كثـيرة يكـون الصمـت هـو الحـل لأشـياء كثـيرة، لكـن الصمـت مـع مـراد لم يكـن يومًـا علامـة الرضـا، كان معـه علامـة الضعـف وقلـة الحيلـة.

– أنا همشي ولو احتجتي حاجة كلميني.

عينـاي كانتـا مـرآةً عاكسـة لـكل مـا أحمله لـه بداخـلي، لكنـه فضَّل أن يكـون أعمـى حتـى لا يفهـم، وأنـا فضَّلـت الصمـت حفاظًـا عـلى مـا بقـي مـن كرامتـي. أحيانًـا كثـيرة كانـت تسـقط دمعـاتي أمامـه وكان لا يراهـا متعمـدًا، حتـى صـوتي المخنـوق بالـصراخ كان لا يسـمعه.. الحديـث المـليء بالأسـى دائـمًا يتجاهلـه، لا يريـد أن يسـمع أنينـي وشـكواي.

أحيانًـا كثـيرة نُجَـبر عـلى دفـن أي مشـاعر تجـول بخاطرنـا، نـرى أنـه مـن الأفضـل أن نكبِّـل أصـدق الشـعور، نجـد أنفسـنا تصمـت وبهـا ثرثـرة تفيـض، وحديـث يفتـت الـروح كل دقيقـة.

أوقـات كثـيرة كنـت أود أن أخـبره الكثـير، لكنـي عندمـا أقـف أمـام عينيـه أجـد نفـسي أخـبره بأشـياء لم أود أن أقولهـا أبـدًا.. وكل الحديـث الـذي رتبتـه ليلـة كاملـة لأواجهـه بـه، يتبخـر ويختفـي بـين ثنايـا الذاكـرة عندمـا أسـمع صوتـه.

بـين اللـوم والعتـاب والاشـتياق والحـب تتدفـق الكلـمات، حتـى أبسـط المشـاعر كنـت أتـردد بهـا كثـيرًا، أخجـل مـن أن أخـبره أننـي

اشتقت إليه، أكتفي بأن أفتح صورته وأخبرها بكل شيء، أعاتبه وأشتاق له وأحبه .. لو يعلم مراد قدر الألم الذي يسكن داخلي لبكي من أجلى.

بعد يومين، وفي الساعة الثانية عشرة ليلًا، سمعت صوت فتح باب الشقة، ركضت وأنا أعلم أنه مراد، لكني تعجبت ما الذي يجعله يأتي في هذا الوقت ودون سبب وأيضًا في يوم إجازته، كان يحمل أكياسًا وضعها على المنضدة وسألني إذا كان يوجد ملابس له بالشقة، طلب مني أن أحضرها ليأخذ حمامًا.. تعجبت كثيرًا، حتى ملامح وجهه شاحبة وحزينة.

بعد خروجه من الحمَّام، دخل غرفة النوم وطلب مني أن أحضر له زجاجة الخمر وثلجًا، كنت أنفذ دون أي تعليق.

زجاجات الخمر دائمًا في الثلاجة، زوجته التي كانت ترفض وجودها بالبيت، كان هو يضعها في هذه الشقة، كنت دائمًا أعترض لكني لا أسجل اعتراضاتي هذه، أصمت خوفًا من أن يملّ مني مثلما ملَّ من زوجته، فعلت كل شيء يمكن أن يرضيه كي يبقى لكنه دائمًا لا يرضيه شيء ولا أحد.

فتح زجاجة الخمر وظل يشرب، كنت صامتة وهو أيضًا، ننظر إلى التلفاز وكلانا شارد بفكره، نظرت له وسألته بهدوء:

- هو في حاجة حصلت يا مراد؟

نظر إلى نظرة غريبة، أول مرة أرى هذه النظرة بعينيه، نظرة حزن، ضعف، ألم..

– انتي عارفة يا حياة، أنا مش شخص سيء.. أنا بس مابعرفش أختار.. أنا شخص ضعيف، عمري ما حسيت إني قادر أقول أنا عايز دا وأخدته..

لأول مرة يتحدث معي مراد بهذه الطريقة، للمرة الأولى أراه بهذا الضعف، أول مرة يحكي ويقول ما يدور برأسه وقلبه.. فضفض بكل صدق، قص لي عن أبيه القوي، الذي سيطر عليه منذ الصغر، أخبرني أنه كان يعامله بقسوة وجِدَّة كي يصبح رجلًا ولا يتأثر بشقيقاته الاثنتين، سرد عن عنفه الدائم معه وقسوته، وأنه سلب منه حرية الاختيار في كل شيء، أخبرني أن والده جعله يمارس هواية الكاراتيه رغم حبه لكرة القدم، أدخله مدرسة لا يحبها بعيدة عن جميع أصدقائه، حتى إنه كان يختار له مدرسيه، والمواد التي يدرسها، حتى أصدقاؤه كان يختارهم له.. أخبرني أنه رفض كلية الشرطة، لأنه كان يرغب في دخول كلية الهندسة، حتى بعد تخرجه من الكلية، وأصبح رجلًا رشيدًا ويعمل وله دخل خاص، كان يختار له أيضًا كل شيء، اختار له الأماكن الذي يعمل بها، اختار له زوجته، اختار له اسم ابنته..

صارحني بأنه وصل لدرجة كبيرة من الضعف وعدم الثقة في قراراته، جعلته يذهب لوالده كي يختار له، اعترف لي أنه كذب عليَّ عندما أخبرني أنه عندما يريد شيئًا يأخذه..

– أنا مافيش حاجة كنت عايزاها وأخدتها..

رفضت الرياضة والمدرسة والكلية ومراتي، حتى بنتي كنت عايزها ولد، حتى بنتي التانية اللي جاية ماكنتش عايزها بنت.

كنت أنظر له ولا أعرف ما الذي ينبغي عليَّ فعله، أتعاطف معه، أم أتعاطف مع نفسي! أرأف به أم أرأف بنفسي وحالي! لكن الألم والضياع الذي سببه لي يجعلني لا أتمكن من الغفران لحظة، أنا أيضًا ليس لي ذنب بكل ما مر به أو بمشاكله النفسية، أنا مجنٍ عليَّ ولا يوجد جانٍ غيره..

- أنا عارف إني حبيتك.. وعارف إني أضعف من إن أواجه.

أقترب مني وسحب يدي ووضع رأسه على صدري، طلب مني أن أحتضنه، فعلت بكل ضعف، ردد بصوت مخنوق بالبكاء..

- انتي السعادة الوحيدة اللي اتمنتها وأخدتها.

أنا البلهاء الساذجة التي صدَّقته وآمنت له، أنا الضعيفة التي شعر بقوته معها وعوضت نقصه، حتى وإن كنتُ السعادة التي حلم هو بها يومًا، فتمكنت منها ولم يتمكن أن يحافظ عليها.

عانقته بقوة، لكني كنت أعانق نفسي أولًا، حاولت أن أخرج أوجاعي في حضنه، بكيت، لكنه كعادته استغل ضعفي ومارس معي العلاقة الحميمة، لم أتمكن من الرفض، كنت أضعف من أن أقول لا لأي شيء منذ معرفتي به، رغم كل الذي حدث ما زلت ضعيفة هشة أمامه، مهما امتلأ الكأس بالتخلي والخذلان.

أحببته بالشكل الذي يليق بأنثى قوية لم تحب بعد، أحببته

بحجم سنوات عمري التي مرت هباءً، أحببته بكل ما أوجده الله بداخلي من حب، أحببته للحد الذي لا يمكن لعقله تصوره.. قدر ما أوجعني أحببته.

أخبرني ذات يوم أنه لم يعرف معنى الحب قبل أن يعرفني، أي حب الذي كان يتحدث عنه وقتها؟! هو لم ولن يعرف معنى الحب طوال حياته، لم يعرف سوى حب ذاته فقط، لم يعرف سوى كيف يرضي كل شهواته وملذاته، تعلم كيف يأخذ ما يريد كاملًا دون أن يعطي مثقال ذَرة.

كيف أصبح إنسانًا سيئًا بهذا الشكل ؟! كيف طوال سنوات عمره وهو يتعايش مع مساوئه وقُبحه؟

رغم علمي أنه يمكن أن يكون ضحية للتربية الخاطئة، إلا أنني لم أتعاطف معه مطلقًا، أنا أيضًا نشأت في ظروف قاسية وتفكك أسري صعب، منذ نعومة أظفاري وأنا أعيش بلا أم، أعيش مع زوجة أب، حرمني أبي من أمي سنوات طويلة في أشد احتياجي لها، كان من الممكن أن أصبح شخصًا سيئًا، كان لدي مبرر قوي من نتاج انفصال وتفكُّك أسري، لكني تمكنت أن أكون شخصًا متصالحًا مع ذاته إلى حدٍ كبيرٍ، حاولت أن أعالج نفسي وأقيم الاعوجاج، لكنك يا مراد منحت نفسك المبررات والحجج كي تتقبل مساوئك وتتعايش معها.. الظروف لا تبني شخص، الشخص هو الذي يبني نفسه بنفسه، هو شخص سيء، معدنه نفسه سيء.

استيقظت من النوم وجدته نائمًا جواري، كانت هذه أول مرة له ينام خارج منزله أو تحديدًا معي، كنت أتمنى أن أعيش معه هذا الشعور في وقتٍ آخر وفي ظروف أفضل.. جلست خارج الغرفة أنتظره يستيقظ، سمعت صوت اهتزاز هاتفه على المنضدة، ووجدت اسم زوجته تتصل به، وضعته مكانه، وجلست أنتظر.

بعد حوالي ساعتين استيقظ، وجدته يبحث عني وينادي عليّ، حتى وجدني..

- صباح الخير.

أمسك هاتفه، ثم طلب مني تجهيز الإفطار، تحركت إلى المطبخ وأعددت له إفطارًا جيدًا، جلسنا نأكل سويًا في صمت، بعد قليل نظر إليَّ وقال بصوت هادئ.:

- أنا مش عايزك تسافري.

رفعت رأسي ونظرت له بتعجب:

- مش فاهمة.

- مش عايزك تبعدي.

- ولو ماسافرتش إيه اللي هيحصل؟

- مش عارف.. بس مش عايزك تسافري.

لم أجد ردًّا على كلامه ولم أرد حتى أن أدخل معه في جدال ونقاش لا يؤدي لأي نتيجة، نظرت إلى صحني واستكملت الطعام.

نهض من على منضدة الطعام، وتوجه إلى الغرفة، ارتدى ملابسه وأخبرني أنه سيعود، ثم رحل.

لا أنكر حينها أنني تمنيت أنه يندم ويقرر أن يصلح ما أفسده، تمنيت أن أجده يتصل بي ويخبرني أنه سوف يذهب لأبي ويحكي له كل شيء ويطلب يدي منه، تمنيت أن يعتذر لي ويطلب مني أن أسامحه وأعطيه فرصة ليعوض قلبي، لكني كنت أعلم أنه لن يفعل وأن كل هذا مجرد أوهام.

***

الوقت لا يمضي عندما نريد ذلك، لكنه سيمضي تحت أي ظرف، ليس هناك شيء في العالم يتوقف إلا إذا أراد الله ذلك.. يوم وراء يوم وأنا أنتظر لحظة السفر، كل شيء أصبح باردًا كالثلج، حتى مراد لم يعد يعني لي أي شيء، كنت أراه شخصًا عاديًا مثل أي شخص، أصبحت لا أحمل له أي مشاعر، رغم أنه كان يأتي كل يومين أو ثلاثة ليطمئن عليَّ ويجلس معي ساعة أو نصف ساعة ثم يرحل، إلا أنني كنت أفلت أحباله من قلبي يومًا بعد يوم.. كنت أنظر إليه، أتعجب أهذا هو الشخص الذي أحببته كل هذا الحب؟!، الشخص الذي أضعت حياتي من أجله، لكن سبحان من يبدل الشعور الذي كان يملأ القلب ويفيض.

بعد مرور حوالي خمسة وأربعين يومًا، تأخرت دورتي الشهرية، وكنت وقتها أشعر بإعياء بين الحين والآخر، لكني كنت لا أتابع ولا أركز في أي شيء سوى سفري.

خرجت من البيت واشتريت اختبار حمل منزلي من الصيدلية، كنت أخشى أن يكون صحيحًا كل ما يخطر في بالي، لا طاقة لدي لأي سوءٍ آخر.

قمت بعمل اختبار الحمل، وانتظرت قليلًا، كنت أنتظر بترقب وخوف مُميت بعد ظهور العلامة الحمراء الأولى، ينسحب الدماء من جسدي كلما تظهر العلامة الحمراء الثانية وتثقُل.. لا تأتي المصائب فرادى أبدًا، لكنها تأتي دفعة واحدة.

تمنيت كثيرًا أن أصبح أمًّا، دائمًا أنتظر أن يأتي هذا اليوم الذي سأكون فيه أهم شخص في هذا العالم لمخلوق صغير، لكن دائمًا الحياة لم توعدنا بالسعادة التي حلمنا بها دومًا، أجبرتنا أن نعيشها كما هي، أن نتحمل كل أعبائها، ونتذوق الحزن والألم بدون مرارة، دائمًا تأتي الأشياء التي عندما نكف عن انتظارها.

حاولت التقاط أنفاسي كي أفكر فيما أنا فاعلة، كيف سيكون رد فعل مراد عند علمه؟ لكني قررت أن آخذ وقتي في التفكير هذه المرة، إنها مرة تستحق التفكير.

بعد يومين جاء مراد، وثرثر بكلمات قليلة باردة، كنت مترددة جدًّا أن أخبره، وخائفة أيضًا..

- مراد أنا حامل.

انتفض مراد من مكانه، وسألني ماذا أقول، كررت عليه هذه الجملة ثلاث مرات، سألني بتعجب وهو شاحب الوجه:

- إمتى دا حصل؟

– هـو انـت عشـان كنـت شـارب ف مـش فاكـر أوي، ولا انـت مـش عايـز تفتكـر.

صمـت قليـلًا وظـل شـاردًا لدقائـق، وسـألني كيـف علمـت، وهـل تأكـدت؟ ثـم طلـب منـي أن أصمـت قليـلًا ليفكـر، سـألته عـن الـذي يفكـر بـه، رد مسرعًـا:

– بفكـر هنعمـل إيـه في المصيبـة دي.. في واحـد صاحبـي دكتـور جـراح، هسـأله أكيـد هيقـولي حـل.

كنـت أعلـم رد فعلـه مسـبقًا، أعلـم أنـه ليـس لديـه الشـجاعة أن يحتفـظ بهـذا الطفـل، وأنـا أيضًـا ليـس لـدي طاقـة ولا شـجاعة أن أنجـب طفـلًا في مثـل هـذه الظـروف، لكـن كان هنـاك شـعور قـوي يعترينـي أن أحتفـظ بـه، شـعرت باحتياجـي الشـديد لـه، وأنـه ضـوء طفيـف لـو تركتـه يـزداد سـوف يُنـير حيـاتي المظلمـة.. رغـم ضعفـي وخـوفي مـن مـراد وعـدم قـدرتي أن أخالفـه في شـئ، إلا أننـي قـررت أن أنطـق لأول مـرة بــ «لا».

كان ردي عليـه صادمًـا لـه، أخبرتـه أننـي لـن أفعـل، أكـدت لـه أننـي لـن أوافقـه هـذه المـرة، انتفـض مـن مكانـه وتبدلـت ملامحـه الهادئـة بملامـح الـشر التـي أخشـاها كثـيرًا..

– آه انتي متخيلة يعني إنك ممكن تلوي دراعي بيه،

وتخليني أروح أقابل أبوكي وأصلح مشاكلك معاه.

– أنـا لا هلـوي دراعـك ولا عايـزاك تتجـوزني.. انـا كلهـا أيـام وهسـافر مـش هتعـرف عنـي حاجـة.

– وترجعي بعد أربع خمس شهور تقوليلي اعترف بابنك، وتوصلي للي عايزاه.

أخبرته أنني لن أعود مرة أخرى لهذا البلد، لكن لم يستمع لي ولم يصدق، وأتهمني أنني من دبرت لكل هذا كي أورطه بي، سألته بتهكم..

– أنا اللي اتصلت بيك وقولتلك تعالي؟

ولا أنا اللي سكرت وماكنتش عارفه أنا بعمل إيه؟

ولا أنا اللي قولتلك ماتخدش احتياطاتك؟

– وأنا ما ضربتكيش على إيدك ولا عملت حاجة غصب عنك،

مامنعتنيش ليه ورفضتي؟

– عشان عمري ما عرفت أقولك لا، بس أنا النهارده هقولك لا يا مراد.

نظر إليَّ بكل حدة، وأخبرني أنه لن يتراجع عن قراره، بكيت وأنا أترجاه أن يترك لي هذا الطفل، أخبرته أنني فقدت كل شيء في حياتي، وأصبحت حياتي فارغة ليس لها أي معنى، طلبت منه أن يتركني أحتفظ به كي أبقى على قيد الحياة، أخبرته أنني لا يمكن أن أبدأ من جديد، وأن هذا الطفل بداية ونهاية لكل شيء، ترجيته أن يتركه لي أعيش معه وله الباقي في حياتي.

كنت أترجى قلبًا صلبًا، حجرًا، خاليًا من المشاعر، لم يهتز كعادته، وبعد انهياري وضعفي الذي بدا أمامه، أنهى الحديث

تمامًا، ولملم أغراضه وأعد نفسه للرحيل وهو يخبرني، أنه سيتحدث إلى صديقه الطبيب وسينتهي الأمر بمجرد إيجاد حل.

كل يوم يمر أزداد كرهًا ومقتًا له، شوه كل شيء جميل كنت أحمله بداخلي له، لم يترك لي أي ذكريات حتى لو قليلة تجعلني أبتسم، كان لا بُد أن أتغير وأصبح أقوى كي أواجه قسوته وجبروته، جعلني أبدل مشاعري الطفولية البريئة بمشاعر قوية صعبة، تساقط من عيني حتى إنني أصبحت لا أراه، انتهت مشاعري تجاهه تمامًا، تحولت كل مشاعر الحب إلى مشاعر كُره ورغبة في الانتقام، ظللت أفكر في أي شيء أفعله كي أنتقم منه وأوجع قلبه، لكني ليس الشخص السيء، الذي يقدر على إيذاء أحد.. تمنيت لو أنتهي من هذه القصة، لكن من الواضح أن هناك فصولًا أخرى لهذه القصة.

قررت ألا أتراجع عن قراري، وأن أتمسك بطفلي مهما حاول هو بكل الطرق، قررت أن أكون لأول مرة شخصًا حُرًا له مطلق الحرية في الاختيار، رغم علمي أنني لن أتمكن من الانتصار على مراد، لكن هناك دافع كبير يستحق أن أعافر من أجله.

مرت ثلاثة أيام، وأنا لن أغفو خوفًا من القادم، كنت أنتظر مكالمة أمي بفارغ الصبر، لتخبرني أن الإجراءات تمت بنجاح، شعرت أنني لم يعد لدي طاقة لتحمل أي شيء آخر، كان الهروب هو الحل لكل هذا الصخب الذي عشت به وقتًا طويلًا.

أتصلت أمي في الثالثة فجرًا، وأخبرتني أنها انتهت من كل شيء وحجزت لي رحلة الطيران التي ستكون بعد أربعة أيام، أخذت نفسًا عميقًا وكأنني بمثابة سجين وحانت لحظة هروبه.

قررت أن أرحل من هذه الشقة وأهرب من رد فعله، كنت أعلم أنه ممكن أن يفعل بي أي شيء كي يتخلص من طفلي، أعرف شره جيدًا عندما يغضب.

استيقظت وأنا أنوي الرحيل وأتوجه إلى صديقتي مي حتى موعد السفر، لكن مراد ألحق بي.. جاء في الساعة العاشرة صباحًا، أعطاني أقراصًا غريبة الشكل، وأخبرني أن صديقه الطبيب وصف له هذه الأقراص، وأخبره أنه بعد حوالي ساعتين سينتهي الأمر، نظرت له بسخط وبغض، قُلت له أنني لن أفعل هذا ولن أتنازل عن جنيني، وبسذاجة أخبرته أنني سوف أسافر خلال أربعة أيام، وسينتهي كل شيء، صاح بوجهي وأخبرني أنه لن يسمح لي أن أسبِّب له أي مشاكل، تطور بنا النقاش إلى شجار عنيف، بدأ بتوبيخي وإهانتي بأسوأ العبارات، كنت لا أخشاه هذه المرة، لأول مرة أقف بوجهه بكل عند وقوة، هددني إن لم أنهِ هذا الأمر سينتقم مني أشد انتقام..

– أنا مابقتش بخاف منك، ومابقاش عندي أي حاجة أخسرها،

إنت اللي مفروض تخاف مني دلوقتي..

ازداد في توبيخي ووصفي بأبشع الكلمات، كنت أشعر أنني

بحاجة إلى قتله، شعرت برغبة كبيرة في طعنه بسكين حاد لأنهي حياته بعدة طعنات، لكني كنت أضعف من إزهاق روح، وبَّخته ورددت له ما قال من إهانات، وهددني إذا رفضت أن أجهض الجنين فسوف يمنعني من السفر، وشدّد على أنني سأفعل، رضيت أم أبيت سأفعل، خرج من البيت وقفل باب الشقة من الخارج.

أنا أيضًا كنت أرفض أن أنجب من هذا الشخص الكريه، أرفض بشدة أن يكون والد أبنائي بهذا السوء، أرفض أن يكون هناك شيء يربطني به إلى آخر الدهر، لكني كنت أشعر أنني أريد طفلًا يحنو علي في هذه الحياة القبيحة، ينتشلني من كل هذا الضياع الذي حلَّ عليّ، كنت في أمسّ الحاجة لشخص نقي بريء يحبني لذاتي، يعطيني كل ما فقدته.

***

ليت كل الشوارع التي خطونا بها ما كانت، ليت كل الليالي التي قضيناها سويًّا ما كانت، ليت الأيام والشهور التي جمعتنا ما كانت..

أهمس لذاتي بين الحين والآخر، لعله حلم طويل مؤلم سأفيق منه، أو مجرد أضغاث أحلام تطاردني تكفيرًا عن ذنب ما فعلته، لعله أي شيء آخر، أي شيء غير أنه واقع أعيش به.

لأول مرة بحياتي أفكر في الانتحار، بعد أن أغلق كل ثقوب الأمل أن أهرب منه ومن سجنه الملعون، الشخص الوحيد

الـذي جعلنـي أشـعر وأعيـش كل المشـاعر السـيئة التـي مـن الصعـب أن يتحملهـا مخلـوق، فكـرت كثـيرًا أن أتخـلى عـن جنينـي وأهـرب مـن هـذا السـجن، لكنـي كنـت أبكـي عـلى طفـلي الـذي أحببتـه كثـيرًا قبل حتـى أن ينبـض قلبـه داخـلي، كنـت أشـعر أنـه يترجـاني ألا أتخـلى عنه، اتصلـت بأمـي أخبرهـا أننـي لا أعـرف مـا ينبغـي عـليَّ فعلـه، أجابتنـي دون أي تـردد أن أوافـق عـلى الإجهـاض وأهـرب مـن سـخطه، لكـن كيـف أقنـع ضمـيري الـذي يهمـس لي ويخـبرني.. كيـف أسـلب بقـوتي حيـاةً مـن مخلـوق ضعيـف، أنـا الحيـاة التـي أُحيَـي هـو بهـا، كيـف أمنعـه وهـو يتشـبث بوجـوده، فكـرت أن أنهـي حياتنـا معًـا، كنـت أرفـض أن أنهـي حياتـه هـو وحـده، لم أهـدأ لحظـة، ولم يكـف عقـلي عـن التفكـير، الوقـت يمـر وأنـا مازلـت عالقـة في التفكـير، حائـرة بـين خياريـن كلاهمـا مُـر، إمـا أن أقتـل طفـلي وأبقـي عـلى قيـد الحيـاة، أو نمـوت نحـن الاثنـين وينتهـي كل شيء.

تذكـرت جـاسر حينهـا، الـذي كـسرت قلبـه دون رحمـة، تذوقـت مـن نفـس الـكأس لكـن أشـد قسـوة، أخـذت جزائـي بـما يكفـي، دفعـت ثمـن رفـضي كل أيـادي العـون التـي مـدت لي.

الوقـت يمـر سريعًـا ويقـترب موعـد سـفري، وأنـا لا أسـتطيع أن أقـرر أي شيء، أرسـلت لـه رسـائل كثـيرة أترجـاه أن يتركنـي أرحـل، لكـن لم يجِـب عـلى أي رسـالة واكتفـى بالصمـت.

لم أغفـل لحظـة، وأنـا أنظـر إلى عقـارب السـاعة التـي تمـضي، كانـت ليلـة أكثـر بـرودة وأكثـر سـوادًا، سـاعات قليلـة عـلى طيـارتي،

وأنـا لا أريـد أن يمـر حتـى ولـو سـاعة أخـرى في هـذا السـجن، كنـت أضعـف مـن أن أقتـل نفـسي، أقنعـت نفـسي أنـه الأفضـل لهـذا الطفـل ألا يـأتي في هـذا العـالم الـسيء.. فقـررت.

في التاسـعة صباحًـا وقبـل موعـد سـفري بأربع سـاعات، أرسـلت لـه رسـالة، أخـبره أننـي سـوف أتعاطـى هـذه الأقـراص وطلبـت منه أن ننهـي هـذا الأمـر ويتركني.

مسـكت قرصـين مـن هـذا العقـار المميـت وأنـا أبكـي بحرقـة شـديدة عـلى مـا أفعلـه بطفـلي، كنـت أشـعر بالذنـب والحسرة والنـدم، انغمـرت في البـكاء وأنـا أدعـو الله أن ينتقـم مـن هـذا الشـخص الـذي دمـر حيـاتي بشـتى الطـرق، توسـلت إلى الله أن يسـامحني عـلى كل شيء، ندمـت مـن قـاع نفـسي لأقصاهـا.. أخـذت نفسًـا عميقًـا وأنـا أرتجـف وصمـتُّ قليـلًا كـي أهـدأ، في غضـون ثـوانٍ معـدودة، وجـدت عقـلي يُنـير لي فكـرة جديـدة، تذكـرت أنـه أعطـاني نسـخة مـن مفتـاح الشـقة ولم يأخذهـا، ركضـت داخـل الشـقة وأنـا أبحـث عنـه بطريقـة جنونيـة، وجدتـه.. وجـدت مفتـاح حيـاتي وحيـاة طفـلي، وجـدت سـبيلَ الهـروب، ضحكـت ودمعـاتي تتسـاقط، في أقـل مـن عـشرة دقائـق، لملمـت أغـراضي مُسرعـة وفتحـت بـاب السـجن الملعـون وهربـت.. كنـت أمـشي بخطـوات مسرعـة كـي أبعـد عـن مـكان الشـقة، ظللـت أمـشي وأحيانًـا أركـض، حتـى ابتعـدت كثـيرًا عـن هـذا المـكان الكريه، أوقفـت سـيارة تاكـسي، وطلبـت منـه التوجـه إلى المطـار.

أغلقـت هاتفـي، وتمنيـت أن يتأخـر مـراد عـن الذهـاب للشـقة،

كنت لا أصدِّق أنني خرجت خارج سجنه، أنظر إلى الطريق أريد أن أصل وأصعد الطائرة وأصل إلى مكان أمي.. أريد أن ينتهي كل شيء بعجالة.

وصلت أخيرًا المطار، قلبي لم يهدأ دقاته من الخوف، ألتفت حولي كل دقيقة كأنني حقٌّ شخص هارب، أحايل الإجراءات أن تنتهي، كنت أخشى أن يستغل مراد نفوذه ويمنعني من السفر، كلما أنهيت إجراءً واحدًا تهدأ دقات قلبي رويدًا رويدًا، توجهت إلى الطائرة أخيرًا، جلست على كرسي الطائرة وأنا أحاول التقاط أنفاسي، وضعت يدي على بطني وربتّ على جنيني وطمأنته أن كل شيء سيكون على ما يرام، لم أهدأ الا عندما سمعت صوت عجلات الطائرة يتحرك، فتحت هاتفي وأرسلت رسالة لأمي أخبرها أنني في الطائرة ثم أغلقته مسرعة، نظرت من النافذة وأخذت نفسًا عميقًا وأنا أرى أنني أبعد عن هذا البلد، كنت كلما أرتفع إلى أعلى كلما تصغر بعيني وتختفي تفاصيلها، حتى أصبحت لا أراها.. أخبرت نفسي وطفلي أن كل شيء انتهى، وأنني هربت من السجن وأصبحت من الآن حرة، أرجعت رأسي للوراء وأغمضت عينيَّ، وأنا أهمس لذاتي أنني بخير وسأنام جيدًا وكثيرًا..

وصلت إلى العاصمة البريطانية، كنت أبحث عن أمي التي اشتقت لها كثيرًا، أنتظر عناقها الدافئ، وجدتها في انتظاري تحمل باقة من الورود، لم أتمالك نفسي وركضت نحوها وأنا أعانقها بكل ما تبقى مني من قوة، بكيت أمي وهي تشم رائحتي،

اشتقت لهذه السيدة التي رأيتها منذ خمس سنوات، كنت أشعر حينها أنني طفلة تائهة منذ زمن ووجدت أمها أخيرًا، ذهبنا معًا إلى بيتها، كنت أمسك يديها بقوة بالغة، لا أصدق أنني أخيرًا وجدت الأمان والسَّكينة بعد فترة طويلة من التعب.

وصلنا إلى بيت أمي، حاولت أن أهدأ وأنام، أخذتني أمي بحضنها، وربتت على كتفي محاولة منها أن تطمئني، رحت أخيرًا في النوم، كنت على درجة كبيرة من الإعياء.. لا أعرف كم من الوقت مر وأنا نائمة، لكني نمت كثيرًا جدًّا، رغم أن كل الأحلام كانت كوابيسَ وخوفًا من مراد الذي يحاول أن يقتلني، لكني غفوت.

***

كان كل ما حدث لي كل هذه الفترة صعبًا أن يُنسى ويمضي كأنه شيء لم يمكن، كلما شردت بذهني لا أرى سوى هذا الماضي الأليم، ما مر عليَّ لا يتحمله شخص ضعيف، كنت قوية لدرجة كبيرة رغم أنني أشعر أنني لا أستطيع الوقوف مجددًا، استنفدت كل قواي مع مراد، أتذكر نفسي السابقة، أتذكر أبي وأشقائي، أتذكر عملي وزملائي، أتذكر نشاطي وطموحي وصوت ضحكاتي..

كيف يتمكن شخص من أن يدمر شخصًا آخر بهذه الطريقة، كيف يمكنه أن ينام ويستريح ويهدأ ضميره، كنت لا أتخيل أن يكون هناك شخص بهذه الخسة والدناءة.

أوقات كثيرة كنت أنتفض من نومي بسبب كوابيس مرعبة، دائمًا كنت أحلم أنني أهرب من مراد وأنه يحاول قتلي، أُرهقت كثيرًا كي أقنع نفسي أننا انتهينا، وأن مراد لم يبقَ منه سوى ذكريات كريهة مختبئة في عتمة الذاكرة، حتى إنني تخلصت من كل شيء له علاقة به، وأغلقت كل تطبيقات التواصل الاجتماعي.

مر شهر وعشرة أيام، لم أخرج من المنزل نهائيًا، حاولت أمي أن تجعلني أنسى وأفيق، وساعدتني كثيرًا بكافة الطرق أن أخرج من هذه الحالة، لكني لم أستجب، لعنة مراد سيطرت عليَّ كثيرًا، كنت أحتاج وقتًا طويلًا كي أنسى ما حدث، وأستوعب حياتي الجديدة، كنت محتاجة وقتًا كي أبني روحي ونفسي من جديد، وأعالج الألم.

مجرد أحلام توهمت بها، سقطت على رأسي كصخور ضخمة،

أحببت شخصًا بلا قلب، مارس معي كل الطرق السادية بلا رحمة، كأنه ينتقم منّي، خسرت كل شيء بين ليلة وضحاها، أصبحت أمًّا لطفل لا أعلم أي شيء عن مستقبلنا المشوه.

كنت أشعر كل لحظة أنني بمنتهى الأنانية، لمَ صممت على الاحتفاظ بهذا الطفل؟ كنت أحتاجه لدرجة أنني نسيت أنه سوف يولد دون أب في حياة لا ترحم.

كنت أتمنى أن أستيقظ لأجد روحي بعقلٍ فاقدٍ للذاكرة، بصفحة بيضاء ليس بها حتى لو نقطة سوداء، لكنني أحلم بالمستحيل، أحلم بشيء لا يمكن أن يتحقق.

كنت أؤمن طوال حياتي أن الإنسان هو الوحيد القادر على أن ينجو بنفسه من أي ألم ويأس مهما التف حوله المقربون، طوال حياتي وأنا أعتمد على نفسي في كل هذا، لم أتذكر أنني استندت على أحد في عجزي وضعفي، كنت أقع وحدي وأنهض وحدي، أعلم أنني قوية لدرجة كبيرة، تربيت على يد رجل قوي اسمه جلال العدوي، تعلمت منه القوة والإصرار، واعتمادي على نفسي جعلني شخصًا أقوى، دائمًا أنا بخير، حتى في أقصى مراحل الضعف، أجد نفسي بخير دائمًا.

دائمًا يقول لي أبي مقولة «لكل جواد كبوة» كان يؤمن بها جيدًا، وأنا أيضًا.. كنت أخرج من كل انكسار بنجاح وعزيمة قوية.

رغبتي في الانتقام من مراد تزداد كل يوم رغم أنني أحاول ألا أتذكره، كنت أدعو عليه بكل صلاة، أنتظر من الله أن ينتقم منه حتى أهدأ وأستكين، أتخيل أن يأتيني خبر أنه أصابه سوء، لم يحدث أنني تمنيت لأحد أن يصاب بمكروه، لكني تمنيت كثيرًا لمراد هذا وأسوأ من هذا، أتمنى له حرقة القلب، أتمنى أن يعيش في خوف وقلق مثلما جعلني أعيش كل هذا.

كنت أعلم أن الله لا يغفل عن حق أحد، أعلم أن الأمور لا تسير بهذه العشوائية، وأن الله أكبر وأقوى من أي شيء، الله عادل ومنتقم جبار، كنت أثق به كثيرًا، وأعلم أنه سيطمئن قلبي قريبًا، ولن يخيب ظني أبدًا كلما ظننت به خيرًا.

بعد شهر جديد، أقنعتني أمي أن أذهب لطبيب كي نطمئن على الجنين، وافقتها وذهبنا سويًّا، أخبرني أنني في شهري الرابع، شعرت شعورًا غريبًا ومخيفًا في ذات الوقت عندما سمعت صوت دقات قلبه ورأيته على الشاشة الإلكترونية، قلبي كان يدق أيضًا بصوت مرتفع من قوة هذا الشعور، أعتقد أنه ليس هناك شعور يضاهي هذا الشعور، مخيف، مفرح، مقلق، مشاعر مختلطة لا يمكن تفسيرها ولا شرحها، شعرت وقتها أنني أريد أن تمضي الأيام وأراه وأحتضنه وأشمه.

سألَتْه أمي عن نوع الجنين، أخبرنا أنه ذكر واضح المعالم، ضحكت وأنا أتعجب أفعال القدر، ظللت أضحك ضحكات عالية، تعجبت أمي من ضحكاتي، كنت أثق في قدرات الله، لكني لا أتخيل أن الله سيرد لي حقي بهذه السرعة.

طلبت من الطبيب استخراج صور للجنين وكتابة كافة التفاصيل، عدت إلى المنزل وأنا أستجمع كل قواي كي أنتقم، حانت اللحظة التي سيعيش بها مراد كل الذي عشته ومررت به، أرسلت له كل شيء على بريده الإلكتروني وكتبت له رسالة باردة..

– أنا حامل في ولد.. الولد اللي حلمت بيه طول حياتك،

حلمك اتحقق، بس للأسف عمرك ما هتشوفه،

عند ربنا بس هتقدر تشوفه، وعند الله تجتمع الخصوم.

كنت أعلم أن مراد ربما يفقد عقله، عاش سنوات حياته يتمنى أن ينجب صبيًّا، ولأنه شخص سيء لم يرضِه الله، بل وأراد أن يعطيه ما تمنى لكن حرمه منه.

بعد نصف ساعة، أرسل لي مراد وطلب منّي أن أسمح له أن يتصل بي، كانت كلماته بها استعطاف..

– حياة إزيك، ممكن بس نتكلم، ابعتيلي أي حاجة أكلمك عليها.

– مافيش بينا كلام يا مراد.. ولّا نسيت؟

– في بينا ولد مالوش ذنب في كل اللي حصل.

– دلوقتي بس افتكرت أنه مالوش ذنب؟ماقُلتش كدا ليه وانت بتجبرني أنزله؟ هو فعلًا ذنبه الوحيد إنك أبوه.

– أنا ماكنتش عايز أخليه عشان مش ماكنتش عايزه يجي يعيش معانا المشاكل، لكن هو بقى أمر واقع دلوقتي، فخلاص لازم يتربى وسط أبوه وأمه.

- إنسى يا مراد، تفتكر لما تجيلي الفرصة إني أموتك هتردد؟ أنا بعتلك علشان تدوق من اللي انت شربتهوني.

ظل مراد يرسل كالمجنون، حاول بكل الطرق إقناعي أن أتراجع عن هذا القرار، تارة يرسل لي رسالة استعطاف كي أرأف به ويطلب مني أن أعود وسوف يفعل كل شيء أريده وتارة يخبرني أنه سيتزوجني وينفصل عن زوجته ويعوضني عن كل شيء، وتارة أخرى ينفعل ويغضب ويهددني أنه سيعرف طريقي وسوف يأخذ ابنه مني.

كنت أقرأ رسائله ولم أجِب، فعلت به مثلما كان يفعل معي، أنهار كلما أرسل له رسائل عديدة ولا يجيب عليّ، أشم رائحة حرقة قلبه وهزيمته، كانت صفعة أقوى بكثير من صفعته الأخيرة لي، ليس بالضرورة أن تقتل إنسانًا كي تنتقم لنفسك، فمن الممكن أن تقتله معنويًا وتترك مشاعره تقتله بهدوءٍ، كنت أنا المنتصر وليس هو.. تركته يرسل ويرسل ثم فعلت له حظرًا وأغلقت البريد الإلكتروني.

كنت أشعر في هذه اللحظة أنني سوف أتمكن من النوم، أغمضت عينيَّ وأنا أتذكر طفلي وأشرد في تفاصيله الصغيرة، أتخيل كيف سيكون شكله، أحسب الأيام كي يأتي.. غفوت وكانت كل أحلامي هو فقط.

منذ تواجدي في إنجلترا وأنا أرسل لأبي يوميًّا رسائل أخبره عن كل جديد في حياتي، كنت أحكي له عن تفاصيل يومي،

مـاذا فعلـت وأيـن ذهبـت، أرسـل لـه صـورًا لي أيضًـا، كان يفتـح رسـائلي ولا يجُيـب، لكنـي لم أمـلّ يومًـا، أرسـلت لـه رسـائل عديـدة أقسـم لـه إننـي تزوجتـه بعقـدٍ وشـهود، أخبرتـه أننـي أحببتـه حبًـا نقيًّـا طاهـرًا، لكنـي أسـأت الاختيـار، كنـت أترجـاه أن يسـامحني ويغفـر لي..

- إزيك يا بابا.. واحشتني أوي يا عم جلال،

النهـادرة عرفـت إني حامـل في ولـد، كان نفـسي تكـون معايـا وكان نفـسي تفرح،

أنـا فرحانـة أوي إني هبقـى أم، وبفتـح صـورك كل سـاعة عشـان يكـون شـبهك.

***

سنتعب ربما، ولن يكون هناك أي اختيار سوى أن نحيا أو نموت، ستأتي لحظات سنشعر بها أننا على حافية الهاوية، ستكون هذه اللحظات فارقة في حياتنا كلها، إما أن نصمد أما أن ننهزم ونستسلم، لو تمكنّا من أن نغلب ضعفنا سننجو، سنعود أقوى من أي وقت مر علينا، سيتبدل جلدنا ونصبح أشخاصًا آخرين.

حتى الانكسارات لها فوائد، تبني الشخص القوي، تُعيد خَلقه، تجعله يكتشف نفسه من جديد، ليرى أشياء كانت تختبئ بالذاكرة.

أنا أيضًا تذكرت أنني كان لدي حلم تمنيت تحقيقه، نسيته بسبب انشغالي في عملي وبعدها علاقتي بمراد، قررت أن أحقق حلمي وأكتب رواية.. رغم الضياع، إلا أنني تشبثت بخيوط ضعيفة، حاولت النجاة.

كتبت أول سطور الرواية، شجعتني أمي كثيرًا، واشترت لي الكتب والروايات كي أتعلم أصول الكتابة.

يومًا بعد يوم يكبر طفلي بأحشائي وأشعر بقربه، أرسل لأبي كل يوم أي شيء أكتبه من الرواية وأخبره أنني أحبه وأنني بانتظاره كل يوم.. راسلت صاحب دار نشر بمصر كنت قد تعرفت به عندما كنت أعمل بالصحافة، أعجبته الفكرة كثيرًا وطلب مني أن أستكمل لأنه متحمسٌ لنشرها.

تمكنت من أن أحوِّل كل طاقة الحزن والخوف إلى طاقة إيجابية عنيدة، أصبح لدي طاقة كبيرة أن أخرج كل ما بداخلي من مشاعر في الكتابة.. وقد فعلت.

***

«سجينة رقم ٢» اخترت هذا عنوانًا لروايتي، التي تخطت الخمسين طبعة في أقل من ثلاثة أشهر.. أنا الآن «حياة جلال» أصبحتُ من أشهر الكُتَّاب في مصر في الفترة حالية، وأيضًا بكل فخر فأنا ابنة لرجل، وأمٌّ لرجل، والرجال قليلون.

أسميته آدم، ليكون هو وحده سبب في وجود حياة: «آدم جلال العدوي»

خلف كل صمود وعزيمة، صفعة قوية تعيد توازننا، لم أمنح مراد لذة الانتصار عليّ، ولم ولن يكون هو القشة التي قسمت ظهر البعير..

تمكنت من أن أخلق من الألم قوة، صنعت من بقايا الهدم قلمًا، نسجت من قصتي معه حروفًا حريرية، وكتبت بها الرواية الأولى..

اخترت أن تكون أنت «روايتي الأولى».

تمت بحمد الله

***